عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٤ .
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص. ب ١٩٣ .

المحتويات

كتابات في الحضارة - ١ -

الحضارة : بين علماء الأنثربولوجيا والأركيولوجيا — بقلم : مستشار التحرير ٣
متى وأين بدأت الحضارة ؟ — الدكتور عبد الحميد زايد ٢٣
التاريخ العربي والاسلامي من خلال المصادر السريانية العراقية — الدكتور جاسم صكبان علي ٦١
الاسلام والمسيحية في العصور الوسطى — الدكتورة رشا حمود الصباح ٧٥
نصتان في ضوء الوثائق البردية — الدكتور مصطفى العبادي ١٠١
قصور اشبيلية في العصر الاسلامي — الدكتور السيد عبد العزيز سالم ١٢٩

○○○

مطالعات

كتاب المكافأة لابن الداية — الدكتور سليمان عبد العظيم العطار ١٨١
متى تموت الفلسفة ومتى تحيا ؟ — الدكتور حسن حنفي ٢١١

○○○

من الشرق والغرب

في فلسفة العلوم الانسانية — الدكتور ...
قراءة جديدة في اسباب سقوط الدولة الأموية — الدكتور عبد...

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أ...

وتظهر النشرة الثالثة في عام ١٩٤١ على يدي « أحمد أمين » و « علي الجارم » ، وهما استاذان جليلان لهما فضلهما على العربية وأدبها . وكانت هذه النشرة ذات اعداد خاص لطلاب السنة التوجيهية بالمدارس الثانوية . وقد أنهيا مقدمتهما بالآتي :

« وكان الكتاب ـ مع الأسف ـ قد وصل الينا مملوءا بالتحريف والأخطاء فبذل بعض من تقدمونا الجهد في تصحيح بعضها ، وبذلنا نحن جهدنا في تصحيح بعضها ، وأعنا القارىء بتفسير غامضه والتعريف برجاله ، والله المسئول أن ينفع به » وهذه العبارة تشير الى ما في عملها من اضافة ومن نقص .

أما النقص فنتبينه من اشارتها الى ما سبقها من نشرات الكتاب كما تشير ضمنا الى اطلاعها على مخطوطة واحدة نرجح أيضا أنها نفس المخطوطة التي لجأ اليها السابقون . وهذه الاشارة تفيد استعانتها بمن سبقها دون ذكر لأسماء أو شكر على السبق والاستفادة منه أو نقد يبرر اعادة التحقيق .

وبالفعل لن نجد أي جديد كما لم نجد أية تحريفات أو تصحيحات فأول نشرة قد قدمت الكتاب في أفضل صورة ممكنة ، وهي صورة جديرة بالاعجاب ليس بها خطأ وانما بها التزام بأصول التحقيق ما لم تلتزمه النشرتان الثانية والثالثة . وهذا الأمر مؤشر لانفصال الأجيال وتنافر المتعاصرين ما لم يكن موجودا في أوائل القرن . وهذا المؤشر بداية متواضعة لضرب قيمة تراكم الخبرة ، الأمر الذي نما وترعرع وصار بفضل بيروت عملا من أعمال السطو أو الارتجال ونشر الكتب دون اشارة لمخطوطة أو محقق أو تراث سابق في مجال نشر هذا العمل أو ذاك ، وللأسف وصل هذا السلوك أخيرا لبعض الأفراد في القاهرة . ولحسن الحظ بل لأصالة القاهرة لم يتجاوز الأمر من مثل هذا السلوك الا قلة قليلة . وأنا في ذلك لا أحمل الأستاذين الجليلين الراحلين أو غيرهما مسئولية ما يحدث اليوم وانما أرصد ظواهر ارتبطت بقراءتي لهذا الكتاب كان حظها أن ترصد في عمل لهما .

وهذا العمل (الذي ـ كسابقه ـ لم يشر قط للمخطوطة التي تم الاعتماد عليها كما لم يشر صراحة لأصحاب الجهد السابق ومدى تقصيرهم وتوفيقهم) قد استوفى بعض النقص فيما سبق واستغنى عن بعض الكمال فلم يقدم من الفهارس سوى فهرس الموضوعات وأسقط فهارس الأعلام والأماكن ، إلا أنه ، ـ مع ذلك ـ فقد قدم ترجمة للأعلام وتوضيحا للأماكن التي اسقط فهارسها ، ما لم نجده في العملين السابقين . وفوق ذلك فقد استعان بسيرة أحمد بن طولون التي أشارت بل لعلها نقلت بعض نصوص كتاب المكافأة . ففي ص ١٢ يرد في النص « . . فما سرت مرحلة حتى لحق به . . » وفي الهامش ٢ يعلق على كلمة مرحلة : « في الأصل : رحلة ويصعب توجيهها ، وفي سيرة ابن طولون للبلوي : فما سرت الا مرحلة . . . » ومهما كان الأمر فان الرجلين يلجآن الى كتب العصر وأخباره ليتحققا من الأمر في كل ما يحتاج لتعليق أو تفسير أو شرح . ومن الجدير بالذكر أن نشرة محمود شاكر ص ٧ قدمت نفس العبارة دون تعليق وكأنها في الأصل : مرحلة وينفي ذلك أن الخلاف لا يطرد بعد ذلك ، وظني أنه رآها في الأصل : رحلة فلم يستطع توجيهها بسهولة فعد لما ظنا منه بأنها خلل من الناسخ ولكن النشرة الأولى تضع النشرتين التاليتين في حرج حقيقي حيث ترد بها العبارة مع استخدام لفظة « رحلة » دون « مرحلة » ويفسر المحقق في هامشه ص ٨ الأمر قائلا : الرحلة : المرحلة الواحدة ، كذا وجدتها في الأصل بفتح الراء وفي القاموس : الرحلة بالضم والكسر أو بالكسر الارتحال وبالضم الوجه الذي نقصده والسفرة الواحدة » وهكذا ندرك أهمية النشرة الأولى ودقتها . وسنعود للأمر نفسه بعد .

وقبل الانتهاء من الحديث عن النشرة الثالثة يحسن الاشارة الى أمرين :

أولا : أن النقص في الخبر الأول من الفصل الثالث الذي أشرنا اليه من قبل قد تم استيفاؤه تخمينا واستقام السياق بذلك .

ثانيا : أن طبيعة تقديم هذه النشرة لطلاب التوجيهية بالمدارس الثانوية الزمت المحققين بحذف وقع ص ١٢٤ ، ١٢٨ وذلك لبعض العبارات من خبرين من أخبار الكتاب ظنا بمساسها بالحياء العام . وتلك نقطة ربما تخرج عن موضوعنا من ناحية وهي أدخل اليه من ناحية أخرى .

ان معاملة الأبناء بوضع عصابة على أعينهم تجعلهم يرون ما نحب وتحجب عنهم ما نكره شكل من أشكال تصرف النعامة تدفن رأسها حتى تختفي من أعدائها . ان حذف أي قدر من النص يشوهه ويطرح التساؤلات الساخرة ويطلق الخيال فيما يخدش حياء الآباء أنفسهم . ومثل هذه الأمور تعد بالغة الدقة وكان ينبغي الاستفادة من مثل هذه المداخل اللبقة الأخلاقية لشرح ما نعجز عن شرحه لو هجمنا اليه مبادرة وابتداء . وعموما يفضل حذف نص بتمامه من حذف أجزاء منه .

مؤلف الكتاب - ٢ -

سبقنا الى الحديث عن نسخ الكتاب ونشراته لمساسها بقضايا عامة تتجاوز كتابنا الى غيره . ويطرح ما أثير سؤالين لمن الكتاب ؟ وما أهميته ؟

صاحب الكتاب هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن ابراهيم المصري عاش قرنا من الزمان من ٢٤٠ الى ٣٤٠هـ ، وقد ولد في مصر ، وعاصر أحداثها الى ولاية خمارويه في العصر الطولوني ، فهو مصري المولد ، مصري النشأة ، مصري التربية ، تدل على ذلك روايته في كتابه « المكافأة » ، فانه لم يرو عن غير المصريين ولم يحدث إلا عن أخبارهم ، أما أخباره الأخرى عن بغداد ، فهي مما رواه عن أبيه يوسف بن ابراهيم ، الذي كانت أمه داية ومربية لابراهيم بن المهدي أخي هارون الرشيد ، فنشأ معه حتى صار كاتبه . وهاجر يوسف هذا الى مصر حوالي ٢٣٠هـ وعاش فيها وتزوج - فيما يرجح الأستاذ محمود شاكر - بمصر ثم أنجب ابنه أحمد بمصر ، وقد استقر به المقام في مصر ، حتى مات عام ٢٦٠هـ . وقد أطلق عليه المصريون لقب « يوسف بن ابراهيم المصري » ومن الواضح أننا لا نعرف أصله . والسبب في ذلك فيما أرى هو وضاعة شأنه فنحن لا نعرف شيئا عن أبيه سوى اسم ابراهيم ، وأمه ظئر (مربية) ابراهيم بن المهدي ، فهو في الحقيقة الى أمه ينسب . وانتقل نسبه الأموي الى ابنه أحمد ، الذي أطلق عليه ابن الداية . وسبب اختياره لمصر غامض ، ولا أظنه الا أصله المصري فلا يعدم أن تكون أمه جارية مصرية ، مربية لابن المهدي ولعلها تزوجت بمولى مصري ، فأنجبت يوسف بن ابراهيم ، وهذا هو المبرر الوحيد لاطلاق لقب المصري عليه بمجرد وصوله الى مصر فلو كان له موطن غير مصر ما قبل اللقب المصري الا ملحقا بلقبه المنسوب الى موطنه . والاحتمال الآخر - ونحن لدينا عنه أخبار قليلة - أنه حمل لقب المصري قبل قدومه الى مصر نسبة الى موطنه مصر . وهذا الاحتمال هو الأجدر بالتصديق . ولعل زوجته قد اشتغلت بمهنة أمه ، فأطلق على ابنه لقب ابن الداية . وهذا كله مع كل الأخبار التي يمكن أن نستقيها من كتاب المكافأة تؤكد مصرية الأب يوسف بن ابراهيم ، فالخبر الخامس عن عمه اسحق بن ابراهيم ، وهو خبر يتعلق بمصر ، فعمه فيما يبدو يعيش في مصر دون اشارة الى موطن آخر . كذلك أسرته عريقة في مصر بدليل وجود نساء عجائز بها ، فهو يقول في الخبر الثالث والعشرين من كتاب المكافأة : « وكانت تنتاب عجائزنا

عجوز جميلة المذهب . . . الخ » . وصاحب الكتاب يتحدث بلغة أهل عصرنا هذا في مصر ببساطة المواطن المصري العريق في مصر ، ففي الحكاية الحادية عشرة يفتتحها بهذه اللهجة المصرية : « ونزل إلي حارتنا غلام أمرد . . . الخ » . وأخيرا نشير في هذا الى احتمال سبق أن طرحناه عن امتهان أمه لأعمال الداية أنه يحكي خبرا على لسان أم آسية قابلة أولاد خمارويه (خبر ٦٢) كما يحكي خبرا آخر على لسان نعت مولاة أحمد بن طولون (خبر ٤٣) وفي خبر ثالث يعلن عن زواج أبيه من غير أمه لامرأة اسمها ميمونة ابنة داية البطل مزاحم بن خاقان مما سنشير اليه بعد (الخبر ٦٤) ، فهو على صلة بالقابلايت عن طريق أمه أو جدته بشكل أو بآخر . ولهذا ولعدم انتسابه للعرب ولمعيشته في مصر وانتمائه اليها ، وهي اقليم بعيد عن بغداد ، لم يعن أحد بتسجيل نسبه ، أو الاحتفال به أو بابنه ، وهذا شأن التاريخ القديم يهتم بالملوك ، وبذوي الانساب الرفيعة ، بشرط أن يكون هؤلاء في عاصمة الدولة . كذلك سحب التاريخ القديم ممن غضب عليهم حق الوجود في صفحاته في أحيان كثيرة . ويوسف بن ابراهيم هذا ألف كتابا في الطبيخ ، مما يدعم ارتباطه بالنساء المربيات الخادمات في القصور ، واستفادته من خبرتهن في تأليف مثل ذلك الكتاب ، ولا سيما أنه ابن داية فضلا عن زواجه من ابنة داية تعرف بميمونة كما سبق لنا القول ، وهي مولاة أم محمد بنت الرشيد ، وقد ربت تلك المرأة أبا الفوارس مزاحم بن خاقان ، الذي ولي مصر عام ٢٥٤هـ ، وقد كان بيت والد مزاحم بن خاقان في نفس حارة بيت ابراهيم ، والد يوسف المصري هذا . من ثم فإن فقد يوسف النسب الرفيع ، فقد اتصلت أسبابه ببيت الخلافة عن طريق النساء ، في شخص أم يوسف ظئر ابراهيم المهدي ، أو أم زوجته ظئر أم محمد بنت الرشيد ، وظئر مزاحم بن خاقان (الخبر ٦٤) .

❁❁❁

ومن ذلك كله نعرف أن أحمد بن يوسف بن ابراهيم عاش في مصر عمره كله ، لم يتصل أمره بغير أهلها ، الا عبر روايات أبيه الذي تنقل بين مصر والعراق والشام ، وان فهمنا من سياق حكايات المكافأة أن الأسرة استقرت في مصر طوال الوقت منذ هجرة الأب اليها في حدود عام ٢٣٠هـ . ومن الأب أخذ الابن فن الحياة ، فالأب التفت الى ضياعه وأمواله ينميها ، كما استن السلوك المستقيم ، وتفقه في العلم والأدب والكتابة لينال مكانة اجتماعية مرموقة ، دون مطمح للتعيش بذلك أو نيل المناصب . وعاش على حرف يحاول أن ينجو بسفينة حياته من الغرق في بحر الفوضى في العصر العباسي الثاني ، حيث كثر تغير الولاة وتبدل الجُبَاة ، وشاع التمرد ، كما شاع قطع الطريق . ويختط الابن نفس الخط دون تعديل ، وان كان يبدو من الأخبار أنه أكثر توفيقا من أبيه .

وكل ما لدينا من أنباء عن حياة الكاتب أحمد بن يوسف لا تعني شيئا بجوار تجسيم تلك الحياة في كتابه المكافأة .

لقد حاولنا أن نترجم لحياة المؤلف فلم نفلح في خلق صورة كتلك التي يطالعها القارىء في كتاب الرجل . ولكننا آثرنا تقديم بعض المعلومات التي تفيد في تحديد المسائل الآتية تحديدا دقيقا :

١ ـ أننا أمام كتاب يعالج قرنا من الزمان شهد استقلال مصر وتشكيل دولة الطولونيين فيها ثم اتساع هذه الدولة ، كما نشهد أيضا سقوط تلك الدولة ، وانهيارها ، وكما أخذ أحمد بن طولون بسيفه أتباع العباسيين ، أخذ العباسيون أسرته وأتباعه بالسيف ، وبين المذبحتين جرت مذابح ومذابح ، وقامت أمجاد وأعياد ، على أشلاء فلاحي الأرض في مصر ، بل وعلى أشلاء متضمني الضياع المسئولين عن ادارتها وجبايتها .

٢ ـ أن مؤلف الكتاب اتصلت أسبابه بالأعيان

والفضلاء عن طريقين أحدهما ورثه عن أبيه ، وهو النساء الخادمات في القصور المتصلات بأعلى رجال الدولة ، وأما الطريق الثاني فهو طريق الفضل والعطاء العلم . والطريقان معا حفظا عليه روحه وماله .

ـ أن نسب المؤلف وحذره من الحكام ألصقه بعامة الناس وأدخله بيوت المستورين بالاحسان . والمستورون هم الفقراء تمنعهم عزة النفس أن يتكففوا الناس إلحافا . وعلمه وفضله واتساع ثرائه ألصقه بالطبقة المتوسطة من الوجهاء والتجار وجعلته كفو الوزراء ، والعمال ، فكان له من التوفيق في كتابه ما تجاوز حدود العصر .

والآن حان لنا أن نتكلم عن كتاب المكافأة لنعرف مدى أهميته ، وذلك بعد حديثنا عن نشراته ومؤلفه .

المكافأة بين الفكرة وطرحها ـ ٣ ـ

يقدم الكتاب في شكل رسالة من صديق الى صديقه ، وإن كنا لا نتبين من الصديق الذي كتبت اليه الرسالة . والرسالة تتضمن مقدمة وثلاثة أقسام : تبدأ المقدمة هكذا « إن أشد على الممتحن من محنته ، عدوله في سعيه عن مصلحته ، وتنكبه الصواب في بغيته . ولكل وجهة من الجدوى مأتى تستنزل به عوائدها ، ويقرب معه ما استصعب منها ، يستثيره حسن الروية ، (ويهدي اليه) صالح التوفيق » وهذه العبارة المركزة تكشف مبدئيا عن خصيصة أسلوبية في الكتاب كله : وهي تضييق الخناق على الدلالات الواسعة بأبنية دالة شديدة الضيق ، لا تدرك دلالاتها الا للمتأمل في هدوء ، فمثلا الجملتان « عدوله في سعيه عن مصلحته ، وتنكبه الصواب في بغيته » توهم بشيء من التزاوج والترادف كما نجد عند الجاحظ وكما لاحظ محمد كامل حسين . والحقيقة غير ذلك فالجملتان بالفعل متساويتان ايقاعيا ومع ذلك فالجملة الأولى تفيد الانحراف في السعي عن اتخاذ اجراءات تحقق المصلحة لمن يسعى . والثانية تفيد : الخطأ في تحديد الهدف . فهناك اذن لن يصاب بكارثة ما ، ما هو أعظم ضررا من كل كارثة ويتمثل ذلك في أمرين احدهما الخلل في السلوك الصحيح والثاني : عدم تحديد الهدف .

وإذا نظرنا في بقية العبارة ، رأيناه يضيف إلى الحقيقة السابقة أمرا جديدا هاما : إن كل هدف مفيد له مدخل يحطم كل العقبات اليه ، وهذا المدخل لا يتحقق الا بالروية وحسن التوفيق في معالجة الأمور . فالكاتب بهذا يثير قضية خطيرة أثارها ميكافيللي بعده بقرون طوال . وإن كاتبنا كما سندرك بعد يعالج الشق الذي لم يعالجه ميكافيللي في كتابه الأمير . إن ميكافيللي يطرح أساليب تحقيق الهدف السياسي للحاكم ، وابن الداية هنا يطرح أساليب تحقيق هدف الوجود في مواجهة الحاكم ، وقضايا التعامل الاجتماعي للمحكوم . وهذا أمر جليل يستثير فينا قدرا أكبر من الاحتفال بالكتاب وتلقيه في تأمل عميق .

من ثم نمضي مع المقدمة القصيرة الموجزة في فقرتها التالية : « وقد رأيتك لا تزيد من رغبت اليه ـ فيما تحدوه على برك وتحثه لما أغفل من أمرك ـ على نَصٍّ مكارم من سلف . وترى أنه يهش الى مساجلتهم ، فلا تبلغ في هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب اليه ، ولا توجد في الراغب فضيلة تحثه على شفيع قصده . ولو عدلت عن مكارم من رغب اليه ، الى حسن مكافأة من أنعم عليه ، لكانت لك ذرائع يمت بها الراغب ، توجد المرغوب اليه سبيلا الى الانعام ، وتفسح أمله في مواترة الاحسان . ولم يؤت الجود من مأتى هو أغمض من مغادرة حسن المكافأة ، ولم أنعمت النظر فيها لوجدتها أقوى الأسباب في منع القاصد ، وحيرة الطالب ، ولو كانت توجد مع كل فعل استحقها ، لآثر الناس قاصديهم على أنفسهم ، ولجروا على السنن المأثورة

عنهم . « وفي هـذا النص ينقسم الناس في نـظرنا إلى قسمين : قسم راغب وقسم مرغوب إليه . والـراغب طالب شيء . والمرغوب اليه قاصد احسـان في الاداء بعطاء الراغب ، وبالبعد قليلا عن مصطلحات الكاتب المكثفة (مثل تعبيره : القاصد يريد الشاكر لما هو فيه أو لما أخذ بالقصد الى مكافأة من احتاج لما عنده أو من سبق وأسدى اليه يدا) فإننا نجده يقـدم الى صديقـه الذي يكتب رسالته اليه شيئا من اللوم الخفي غير المباشر ، لأن هذا الصديق تصنيفا للناس ـ وهو في الحقيقة تصنيف يـوافق عليـه عصـر المؤلف ولعله أيضـا تصنيف كـل العصور بما فيه عصرنا ـ على أساس أنهم آخذ ومعط ، والآخذ لا ينظر اليـه قط ، بل ان كـل التراث يحتفـل بالمعطي دون الآخذ ، كأن هذا التصنيف تقسيم حاسم وجامد وثابت للناس . وأصبحت كل الفضائل تسند لمن أعطى دون غيره .

والكاتب يرفض هـذا التصنيف البائس لأنـه يهمل حقيقة معروفة : هي أن الآخذ لابد أن يعطي ، وأن المعطي لابد أن يأخذ . . وأننا ينبغي أن نحمد للآخذ عطاءه المنتظر ، وأن لا نبالغ في شأن المعطي ، لأنه آخذ بالضرورة . ومادام الأمر كذلك ، فالكارثة التي وقع فيها الصديق الموجهة اليـه الرسـالة ، والتي نقـع فيها جميعا ، وهو عدم وعينا بذلك فنحتفل بقيمة ضـارة ، ونهمل القيمة الحقيقية التي يفرضها الواقـع ، ومن ثم فنحن دائما على المستوى التعليمي ، وعبر وسائل نشر الثقـافة ، نمجـد المعـطي ، ونـذكـر أمثلة من السلف كنماذج للعطاء ، ينبغي أن تحتذيها الأجيـال ، ونهمل شأن الآخذ حال تحولـه الى معط . وبهذا ننشـر فضلا ناقصا وقيمة لا تشجع على خير ، فاذا حفزنا من يعطي على استمرار العطاء دون مقابل ، لضاع الجود ، ولكان العطاء سببا في يأس صاحبـه وضيقه بـه . اذن القيمة الحقيقيـة التي أهملناهـا هي أن العطاء فعـل ضروري للأخذ ، وأن من أعطى اليوم أخذ غدا ، ومن أخذ الآن أعطى فيما هـو قادم من الـزمان ، فـالحياة سلسلة من الأخـذ والعطاء لا تنفصـل . ومن هذا الـوعي نشتق القيمة الحقيقية وهي : حض الآخذ على العطاء وعلى مكافأة المعطي وحفز المعطي على العطاء بمكافأته بالعطاء حين يحتاج ، أو يقع في شدة . ويصبح الجود الحقيقي هو مكافأة من أعطى فيتواتر عطاؤه ويستمر ، وتكريم من أخذ بانتظار عطائه ، كتمام للجود الذي بدأ يوم ان أخذ .

وبهـذا يتم الوعي بحقيقـة أعمق ، تـدعم القيمـة السابقة ، هي أن الناس متساوون ، وإن علا بعضهم فوق بعض فلعلة طارئة من منصب أو مال ، وهذا العلو خدعة ، لأنه صفة المنصب أو المال ، وليس صفة أصيلة في الانسـان . ولذا فمن خـلال قيمة الجـود بمفهومهـا الجديد الذي يطرحه الكاتب تبرز قيمة المساواة لتسقط من وعينا أي وضع طبقي نكتسبه . ويصبح أمرا منطقيا أن يعمد الكاتب الى تأكيدها في أول صفحات كتابه في « الخبر القصصي رقم ١ » في حوار بـين رجل السلطة وبين أحد عمـلائه الصغـار بعدمـا أمر رجـل السلطة صاحب الديوان بقطع يد العميل أمامه فقال العميل :

ـ استبقني أصلح الله الأمير

فقال صاحب الديوان :

ـ وما يكون من مثلك ؟!

فقال العميل :

ـ ان لم يقدر في الزمان رفعتي الى منزلتك ، فلا تأمنه على حطك الى منزلتي ، فيكون مني ما تحمده .

فقال صاحب الديوان :

ـ أطلقوه ففيه عظيم .

تلك هي قيمة المساواة . أما القيمة الأخـرى فهي المفهوم الاجتماعي للأخذ والعطاء ، فلا ينبغي أن ننظر الى من أعـطانا متصـورين أنه الـوحيد الـذي يستحق

المكافأة على عطائه . ان الأخذ يوفي دين المعطي اذا حاكاه في العطاء ، وسدد الدين الى أي فرد في المجتمع ، لأن سلسلة الأخذ والعطاء هكذا ستنتشر في دائرة تتسع لتعم الجميع . ونستطيع بسرعة الوصول الى هذا العمق الاجتماعي لمفهوم الجود (الأخذ والعطاء) عند كاتبنا من الخبرين القصصين رقم ٢ ، ٣ . ففي الخبر رقم ٢ قرر صاحب الخراج / معاقبة / أحد المتأخرين من المتضمنين (ملتزمي سداد الخراج) فسد عنه الدين أحد الموجودين ممن لا يعرفه وبعد ما سدد عنه الدين التفت الى جار له وسأله :

ـ تعرف هذا الرجل ؟

فقال :

ـ نعم ، ومن العجب ألا تعرفه .

فقال :

ـ يا أخي ـ أمر في رجل (يريد : امر بمعاقبته) ، يجري مجرانا في معاشنا بما لم أطق والله احتماله ، وعندي ضعف ما طولب به ، وكانت صيانته (من الضرر) أحب الي مما حويته (أمتلكه) . فاذا لقيته ، فعرفه أني أورد المال عنه ، لئلا يورد المال مضعفا .

وفي الخبر رقم ٣ ينقذ أحدهم أعرابيا من قطاع طريق وقد حاولوا سلبه فيسأل الأعرابي الرجل وقد عجز عن مكافأته : كيف يرد على هذا المعروف ؟ فأجابه :

ـ اذا رأيت رجلا أحاطت به خيل (تريد) سلبه فذدتها عنه ، فقد كافأت عارفتي (أي معروفي) .

فمن أنقذه أحد الناس من الغرق عليه أن ينقذ أول غريق يقابله ليرد جميل من أنقذه . فمفهوم حسن المكافأة اذن له عمق اجتماعي يتمثل في المساواة بين الآخذ والمعطي ، وفي أن حق المعطي لدى الآخذ يمكن سداده لأي فرد يحتاج العطاء .

ويربط أول المقدمة بآخرها نستطيع أن نطرح قصتها ، ونحن في ذلك نستعين بمنهج كل الكتب العربية النظيرة ، ونخص بالذكر رسالة طوق الحمامة لابن حزم . ان هناك صديقا لابن الداية كتب اليه يسأله حلا لمشكلة أو محنة امتحن بها . فيقول له « ان أشد على الممتحن من محنته ، عدوله في سعيه عن مصلحته ، وتنكبه الصواب في بغيته . وهذه العبارة المكثفة تطرح فكرا راقيا للكاتب ، وهو فكر تحليلي موضوعي فأمام ما تطرحه علينا الحياة من امتحان ينبغي أمران :

١ ـ أن يكون سعينا لتحقيق مصلحتنا لا ينحرف عن ذلك .

٢ ـ أن يكون هذا السعي مسبوقا بتحديد الهدف (أو البغية) تحديدا يتسم بالصواب .

والمحنة الحقيقية هي أن يكون سعينا في غير مصلحتنا وتحديدنا للهدف متنكبا عن الصواب . وهذا لوم خفي للصديق يتهمه بالسعي في غير مصلحته ، والخطأ في تحديد الهدف . ولأول وهلة نحن أمام مفهوم للسلوك الاجتماعي يقوم على فكرة الخطأ والصواب ويطرح أسلوبا عمليا في الحياة الاجتماعية يرسم خطوات السلوك من سعي لمصلحة وتحديد لهدف .

وتسير المقدمة في هذا الطريق « ولكل وجهة من الجدوى مأتى تستنزل به عوائدها ، ويقرب معه ما استصعب منها ، يستثيره حسن الروية ، (ويهدي اليه) صالح التوفيق » فما دام من الضروري تحديد الهدف فلكل هدف مدخل خاص به يقهر كل الصعاب اليه . ولا نكتشف ذلك المدخل الا بالروية ، وسليم التوفيق بين الأمور .

ولكن ما هي محنة الصديق أو مشكلته التي حدت بابن الداية الى ما سبق ؟ يأتي بعد ذلك في المقدمة « وقد رأيتك لا تزيد من رغبت اليه ـ فيما تحدوه على برك ، وتحثه على ما غفل من أمرك ـ على نص مكارم من سلف . وترى أنه يهش الى مساجلتهم فلا تبالغ في هذا أكثر من احراز الفضيلة للمرغوب اليه ، ولا توجد

للراغب فضيلة تحثه على شفيع قصده » ان الصديق يحاول دائما أن يوقظ فيمن رغب الى عطائه كل سبيل تدفع هذا المعطي الى استمرار تقديم العطاء اليه ، دون أن يتيح له فرصة بأن ينساه أو يغفل عن بره . وأسلوب الصديق في جذب العطاء هو ذكر مكارم القدماء السالفين لاستنهاض المعطي على منافستهم في المكارم .

وباستمرار هذا السلوك يكتشف الصديق أن كل الفضائل قد نالها المعطي ، وأن التراث بماضيه وحاضره ينسب اليه كل فضيلة ، أما الآخذ (أو الراغب في نيل العطاء) فلا سبيل الى الفضائل أمامه بل سلب من كل فضل نسب الى المعطي . وهذا يعني أن الصديق يعاني وضعا يسلبه من كل فضيلة ، لأنه آخذ من عطاء غيره ، راغب في ذلك العطاء ، مستمر في تمجيد كل معط سلف ، حثا لمن يعطيه على استمرار العطاء ، حتى أحس بجفوة المعطي واغفاله لما سار عليه من سنة عطائه ، بجانب فقدانه لذاته حال وقوفه بباب الآخر مادحا لفضائله .

ومن هنا يطرح ابن الداية على الصديق الحل الذي يجلب له عطاء المعطي ، وفي نفس الوقت يحقق ذاته ويصونها من ذل المدح والسؤال . ان الحل يظهر في مخاطبته للصديق في الفقرة التالية من المقدمة : « ولو عدلت عن مكارم من رغب اليه ، الى حسن مكافأة من أنعم عليه ، لكانت لك ذرائع يمت بها الراغب ، توجد المرغوب اليه سبيلا الى الانعام ، وتفسح أمله في موازرة الاحسان » .

والحل جد خطير ! اننا أمام موقف صارم من السلوك الاجتماعي في عصر الشاعر وما سبقه من عصور بل وفي عصرنا ، وهو موقف غير متشنج بل لا يلجأ للهجوم الا بقدار ما أحسسنا من لوم خفي للصديق . ان السلوك الاجتماعي الذي يحد ما يطرحه المؤلف من حل للصديق موقفا صارما منه ، هو النفاق الذي أخذ صورته المثلى في شعر المدح العربي وفي سلوك الأفراد مع الحكام وذوي الجاه أو السلطة أو المال . انه سلوك يقوم على استهلاك كل الفضائل في خدمة الممدوح ، أو تذكيره بذوي الجود من السلف ونسبة فضائلهم اليه حتى يجري مجراهم . وهو سلوك ينزع بالممدوح الى الزهو والعطاء ، ثم يضيق بما يسمع لتكراره وعدم جدواه ، فيغفل عن العطاء ، بل ويتخلى عن المادحين المنافقين الى استقبال من يسعى بهم من منافقين جدد ، يهزمونهم بابتكار مداخل جديدة ، وهكذا .

ما هو الحل ؟ لقد طرحته العبارة السابقة لهذا الكلام من المقدمة . إننا ينبغي أن نعدل عن صيغة المدح ونسبة الفضائل للمعطي ونتخذ أسلوبا جديدا مخالفا يقوم على توعية المعطي بمفهوم جديد تماما للجود . وأيضا نستنتج هذا المفهوم من أسلوب الكاتب المركز الشديد التركيز .

انه يطلب من صديقه أن يذكر لمن رغب اليه في طلب العطاء حسن مكافأة الآخذ للمعطي . بعبارة أخرى ، على الصديق أن يمدح الآخذين بديلا عن مديح المعطي ، بذكر ما يظهرون من وفاء ومن رد للجميل بأجمل ، فيدرك المعطي أنه بعطائه يشكل رصيدا استثماريا دائم الزيادة والربح . وهذا الحل يحمي الآخذ من سحق ذاته وشخصيته ، ومن تسول العطاء ، ومن الوقوف موقف المنافق في عين المعطي ، فيقبل عليه حرا وينفيه عن وجهه في معظم الأحيان ، لأنه في النهاية يجعل الآخذ وعدا بالعطاء وحسن المكافأة .

ooo

ولا يترك صاحب الرسالة صديقه حائرا ا

مجموعة من الأخبار تبسط وتفصل ما قاله مجمل

تنتهي المقدمة بقوله : (وقد كتبت لك) في هذه الرسا

أخبارا ـ في المكافأة على الحسن والقبيح ، تنص

وتقرب بغية الراغب مما جمعناه ممن تقدمنا وشاهدناه بعصرنا ، وبالله التوفيق . فابن الداية يطرح عبر الأخبار أهدافا ، وسبيل تحقيقها ، في اطار ما يطرحه من مفهوم جديد لفكرة الجود ، في سلم من القيم الانسانية ذات البعد الاجتماعي .

من الواضح أنه يرفض التصنيف التقليدي الذي يطرحه التراث والعصر ، ممثلا فيما طرحه عليه الصديق من معضلة ، وأعني به ما أشار اليه من تصنيف الناس الى آخذ راغب في العطاء ومعط مرغوب اليه . وهو تصنيف يفرض أنماطا من السلوك ومن القيم تؤدي الى القضاء على الجود ، واليأس منه ، لأنها تفرض على الراغب أن يطرح نماذج مثالية من مكارم السلف ، لكي تغري المعطي على أن يسقط كل فضائل هذه النماذج على نفسه المرغوب اليها ، وهو سلوك منافق يحتفل بقيمة مزيفة ، تجعل للمعطي كل فضيلة وتستفزه لمنافسة مكارم السلف دون جدوى ، لأن الآخذ هنا لا يمثل دافعا للمعطي حتى يبذل . وفضلا عن خطأ ذلك السلوك وزيف القيمة ، هناك خطران : أحدهما ضيق المرغوب اليه بالعطاء وعدم جدواه ، واقفال الباب أمام الآخذ لنيل أية فضيلة ، سوى التواكل والاعتماد على مصدر غير مضمون . والخطران ينبعان من ضيق أفق التصنيف في تصوره ثبات القسمين ووضوح الحدود بينهما ، فكأنما هو تصنيف طبقي يجعل الآخذ كما مهملا لا فعل له ، والمعطي نبيلا يمتلك كل الفعل والفضيلة .

وانطلاقا من هذا الرفض يقدم مفهوما جدليا للعلاقة بين الآخذ والمعطي : (الراغب والمرغوب اليه) . فالآخذ اليوم يعطي غدا . والمعطي الآن يأخذ فيما هو آت من الزمان . ومفهوم الجود اكتمال الدائرة ، وتواتر حركتها ، بمعنى أن نقطة البداية على المحيط أن يبدأ معط بالعطاء فيعود المحيط في التفافه الى نفس النقطة ، بعطاء لمكافأة المعطي فيصير آخذا ، يعطي من جديد أملا في تدافع نقاط المحيط اليه بمكافأة جديدة . وأسلوب الآخذ في آن محدد مع المعطي هو خلق الوعي لديه بأن العطاء رصيد مستثمر يتزايد ربحه مع الايام ، فيصبح الآخذ مثل عميل البنك يأخذ منه اليوم ويودع فيه غدا - فيما اذا صح هذا التشبيه . فالحياة في نظر كاتبنا سلسلة متصلة من الأخذ والعطاء ، والجود الحقيقي هو وعينا بأن العطاء أسلوب للأخذ ، ودين يرد مع أجزل الفوائد ، وبأن الأخذ دافع للسداد والمكافأة وتواتر العطاء . ولما كانت لحظة الاخذ تمثل لحظة ضعف للآخذ ولحظة قوة للمعطي مما قد يجعلها مجالا للمساومة والاستغلال ، فإن على الضعيف تذكير القوي بقانون الجود ، ومنطق الحياة ، وهو أن الأخذ قوة كامنة والعطاء ضعف كامن ، وكل (كامن) الى ظهور ، فلندخر من قوتنا لضعفنا ، ولندعم ضعف الآخذ لايقاظ قوته الكامنة .

وانطلاقا من هذا المفهوم للجود تبرز مجموعة من القيم في تشابك . أول هذه القيم هي قيمة المساواة بين البشر ، وهي قيمة تفترض أن المساواة هي الأصل ، وأن القوة والضعف عارضان ، لا يترتب عليهما علو القوي على الضعيف ، وتميزه طبقيا ، لأن كل علو له على غيره هو صفة للمنصب أو المال أو النسب ، وتلك الأشياء ليست من الصفات الأصيلة في الانسان . فعاينا في ظل هذا المفهوم أن نسقط من وعينا أي وضع طبقي نكتسبه ونثبت في وعينا قيمة المساواة .

ولهذا ففي أول صفحة في أول خبر من أخبار الكتاب يبرز الكاتب هذه القيمة ، ففي حوار بين أمير ورجل عادي يتعرض لعسف الأمير يقلل ذلك الأمير من شأن الرجل العادي « وما يكون مثلك ؟ » فيرد الرجل « ان لم يقدر في الزمان رفعتي الى منزلتك ، فلا تأمنه على حطك الى منزلتي فيكون مني ما تحمده » فيقول الأمير في انبهار وفهم لعمق العبارة وصحتها « اطلقوه ففيه عظيم . »

ففي كل انسان عظيم ، والمنزلة العظيمة أو الوضيعة أوضاع طارئة ، تمثل خللا في وعي الانسان .

والقيمة الهامة الثانية التي تبرز فورا في الخبرين الثاني والثالث ، هي أن الآخذ لا يشترط عليه حسن مكافأة من أعطاه شخصيا بل حسن المكافأة بتكرار العمل (أو العطاء) الذي صدر عن المعطي ، كما لا يشترط في المعطي أن يعطي من يرغب اليه لذاته بل لحماية انسان آخر من وضع ضار لا يتحمله هو ، وذلك يعني ما يمكن أن نسميه بالقيمة الاجتماعية للأخذ والعطاء . فالجود إذن عمل اجتماعي سيحتم بالضرورة : أن كل معط آخذ وأن كل معط وأن كل عطاء في الحقيقة هو مكافأة للآخذ على عطاء سالف أو قابل . ففي الخبر الثالث يسأل الآخذ المعطي كيف أرد عطاءك فيكون الخطاب بأن تسدي لمن قابلك في شدة نفس ما أسديته اليك . وفي الخبر الثاني يسد الرجل دين رجل آخر لا يعرفه ، لأنه لم يطق أن يتحمل ما سيقع على المدين من عقوبة ، ولأن صيانة المدين من الضرر ـ ما دام قادرا عليها ـ أحب اليه من كل ما يملك .

والقيمتان معا تقدمان الآخذ والمعطي على قدم المساواة ، وتجعل علاقتهما ذات بعد اجتماعي مطرد ، لأن المساواة بين الآخذ والمعطي تفرض على الآخذ حسن المكافأة أي مسئولية اطراد العطاء ، ومحاكاة فعل المعطي ، وهي مسئولية تتسع حتى أن من يخلف يرى في السلف آباء . ورؤيته هذه جمال فيه ، اذ يقول الوالي الحالي للوالي السابق المعزول وقد ساءت حالته واحتاج للعون في الخبر الخامس « إنه لا فرق بينك الساعة عندي في المرتبة التي كنت فيها ، ومن جمالنا فيما أفضى إلينا أن نحسن فيه خلافة من تقدمنا ، وأن نراهم كالآباء المستحقين البر من أولادهم » وفي الحكاية التاسعة عندما يموت الأب يحسن أصدقاؤه مكافأته ، في علاج جهل ابنه ويحدثونه « تنوهم يا جاهل أن أباك مضى واسترحت ! ولا تعلم أن أباك خلف لك هؤلاء الآباء بأسرهم (حشد عظيم من أصدقائه) ، يردونك عن الخطأ بأليم العقوبة ، ولا يشفعون في مصلحتك من عظيم ، ما كان أبوك يرق عنك فيه ؟ » ، وفي الحكاية الثامنة يقوم الخال بحسن مكافأة من أحسن الى ابن أخته ، ليس للقرابة بينه وبين ابن أخته ، وانما لقرابته بالمحسن ، وهي قرابة اخترعها كون المحسن محسنا ، أي أنها المسئولية الاجتماعية .

وإذا تشابكت قيمة المساواة والقيمة الاجتماعية ، تجاوزت قيمة الجود الأفق الضيق لأي فواصل تقوم على أساس الدين . ففي الخبر العشرين يكون المعطي نصرانيا وحسن المكافأة من المسلم ، فيرد النصراني بما هو أحسن ، فيتمادى المسلم وهكذا دون نهاية . فمفهوم الجود قيمة اجتماعية محضة ، لا تقوم على أساس ديني أو أساس أخلاقي ، وإنما هي صيغة لصنع التكافل الاجتماعي في ظل أفق انساني رفيع ، وبعد نظر يعطي وهو يؤمن بأنه يستثمر بأوفر الربح . وهذا الربح لا يتوقف بعزل المعطي عن جاهه ، أو بموته كما سبق وعرضنا ذلك مستشهدين في الخبر الخامس والتاسع ، وكما يؤكد ذلك عدد من الأخبار مثل الخبر الحادي والعشرين ، حيث يصل حسن مكافأة يحيى بن خالد بن برمك لمن أعطاه (في سجنه مكافأة على ما سلف له من يحيى) بعد نكبته وموته بزمان . أيضا ما حدث في الخبر السادس والعشرين لوالد المؤلف عند موته ، حيث أنقذ أبناءه حسن مكافأة له على ما سلف منه من عطاء . والخبر السادس يقدم حسن مكافأة لمسلمة بن عبد الملك الى اذريته جزاء صنيع قديم ، ونفس الشيء يحدث من حسن ذكر لهشام بن عبد الملك بين يدي المنصور ، وقد أحضر رجلا كان من رجال هشام بن عبد الملك ، ويسائله عن سيرة هشام لأنها كانت تعجب المنصور ، فكان الرجل يترحم عند كل جار من ذكره ، فأحفظ

ذلك (جماعة العباسيين) فقال له الربيع « كم تترحم على عدو أمير المؤمنين ؟؟ فقال الرجل للربيع « مجلس أمير المؤمنين أيده الله ـ أحق المجالس بشكر المحسن ، ومجازاة المجمل ، ولهشام في عنقي قلادة لا ينزعها الا غسلي » فقال له المنصور : « وما هذه القلادة ؟ » فقال : قلدني في حياته ، وأغناني عن غيره بعد وفاته » فقال له المنصور « أحسنت بارك الله عليك ! وبحسن المكافأة تستحث الصنائع وتزكو العوارف . » (الحكاية الثانية والثلاثون) .

❁❁❁

هكذا تجعل القيمة الاجتماعية للجود من الأخذ والعطاء سلوكا ممتدا في الزمان والمكان وشاملا لكل الناس » .

في ختام أخبار المكافأة على الحسن يوضح المؤلف أن أخباره هادفة وأن موقفه من الجود موقف فلسفي واع بقوله « وقد شبه بعض الفلاسفة لحسن المكافأة بالحسام الصقيل الذي يؤدي وقوع الشمس عليه انبعاث شعاع منه يجلو غياهب الدجنة المظلمة ، ويكون وفور شعاعه على حسب صقله . وقال أفلاطون : « من حسنت مكافأته لم تغضبه خيبته فيما التمسه لأنه يقيم العوارف مقام ديون يتحملها لا يسعه اغفال أدائها . وانما يغضب من المنع من آثر نيل العارفة واغفال المكافأة عليها . » ثم يقول المؤلف في سطوره الأخيرة في القسم الأول من الكتاب : « ولأن المرغوب اليه كان يحتاج الى مطالعة حسن المكافأة للاحسان فيثابر عليه ، وسوء المكافأة على الاساءة فيتأخر عنه ، كان الراغب محتاجا أن يكون في خلده من أخبار من أساء الصنيع فساءت مكافأته ، ما يوازي ما أثبتناه من حسن المكافأة على الاحسان » .

ومعنى ما سبق يقدم أبعادا جديدة للقيمة الاجتماعية للجود . ان المسئولية الاجتماعية هي أن يمتد الجود في الزمان والمكان ويعم الناس وتتصل السلسلة ويربو استثمار العطاء . وهذا هو السلوك الحسن . ووصف هذا السلوك السليم بأنه حسن يقدم القيمة الجمالية للجود حتى اننا كما أوردنا في الخبر الخامس على لسان الوالي لسلفه « . . ومن جمالنا . . الخ » فحسن المكافأة جمال . وتكثر الشواهد على تلك القيمة الجمالية ، ومن ثم فإن من يقطع سلسلة الأخذ والعطاء بأن يأخذ ولا يعطي أولا يحسن مكافأة المعطي في سعي لاستمرار احتلاله لوضع الآخذ ، فإن سلوكه هذا قصر في النظر يجره بالضرورة الى الاساءة لمن أعطى ويحسن مكافأة غيره . وهذه الاساءة تتضمن عكس ما طرحنا من قيم للجود فهي تتضمن قيما مضادة ، تخرق المساواة ، وتسيء للمجتمع ، وتتسم بالقبح . ولهذا ساءت مكافأة من يقترفها انطلاقا من قاعدة معروفة هي : الجزاء من جنس العمل . ويكون من المنطقي أن يكون القسم الثاني من الكتاب تحت عنوان : « المكافأة على القبيح » .

ومن هذا العنوان ندرك أن استعمال لفظة « مكافأة » يعني هنا دلالة محددة : « انها مقابل العمل وأجره . » فالكاتب يحاول دائما التجرد من المفاهيم الشائعة الى نحت مفاهيم جديدة .

واستخدام المكافأة بهذا المفهوم يلغي البعد الأخلاقي لها ، وينزع عن الكلمة تصور صدورها من سلطة أعلى تملك صلاحية الحكم على الأشياء الجيدة ومكافأتها ، وأيضا تحل محل كلمة « العقاب » بمفهومه الأخلاقي ، وتصير ذات مفهوم موحد يشمل العقاب كما يشمل الثواب بدلالة جديدة موحدة . إنها تصير نتيجة حتمية للفعل الانساني ، وهي اما نتيجة سيئة أو حسنة طبقا لاساءة الفعل أو احسانه . من ثم يتجنب الكاتب استخدام الثواب أو العقاب كما يتجنب استخدام الحسنة

أو الذنب ، أو ما رادفهما من حلال أو حرام . فنحن أمام قيمة اجتماعية محضة ، تقوم على معيار الانحراف عن المصلحة أو الخطأ في تحديد الهدف كمقابل للصواب في الأمرين . والصواب مكافأته مثل الخطأ تصدر عن طبيعة الفعل من رد فعل اجتماعي مستمر .

وفي نهاية المكافأة على القبيح في القسم الثاني من الكتاب يبرز الكاتب القيمة الأخلاقية للجود لا للمكافأة . فاحسان الفعل خير بالضرورة كما أن اساءته شر . ونفهم ذلك من قوله « واذ وفينا ما وعدناك من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ، ما رجونا أن يكون ذلك عونا على الاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب العارفة في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وابعادها عن سورة الانتقام في القبيح . وقد قالوا : الخير بالخير والبادي أخير والشر بالشر والبادي أظلم ، رأيت أن أصل ذلك . . بطرف من أخبار من ابتلى فصبر فكان ثمرة صبره حسن العقبى . » والكاتب دقيق في هذا النص في تحديد أبعاد القيمة الأخلاقية للجود إنها مواصلة الخير مع المطالبة بالمكافأة على الحسن في مقابل عدم متابعة الشر . فالخير فعل عطاء متواتر وقطع تواتره شر لكن المكافأة في الحالتين نتيجة ضرورية ينتهي اليها الفعل لصالح المجتمع بالضرورة .

لكن اذا عجز الانسان عن الفعل ، فماذا يكون الأمر ؟ هنا تنطلق القيمة الأخلاقية للجود في الفعل داخل النفس فتعينها في محنة العجز على ملازمة الصبر وحسن الأدب مع الرب عز وجل ، بحسن الظن في مراتاة الاحسان عند نهاية الامتحان . والاحسان هنا حسن المكافأة في دورة فعل الجود لا بد وأن تمر بالصابر لما في نفسه من جلد وروية ، يتأتى له بها استجلاب الخير نحوه بأسلوب اعتمد على ثقة النفس في الرب وما زرعه من خير في المجتمع الانساني عبر الجود . ولكي يتم ذلك يقدم مجموعة أخبار لمن ابتلى فصبر فكان ثمرة صبره حسن العقبى لأن النفس ـ كما يقول في سطوره الأخيرة من القسم الثاني ـ اذا لم تعن عند الشدائد بما يجدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها .

ويستمر الكاتب في هذه السطور وقد فهمنا منه أن الصبر أشبه ما يكون بإحسان الفعل واليأس أشبه ما يكون باساءة الفعل ، وأن حسن العقبى ثمرة للصبر ، أي نتيجة له فهي أشبه ما تكون المكافأة على الحسن ، وأن اليأس نتيجته هلاك النفس ومرضها فهي نتيجة أشبه ما تكون بالمكافأة على القبيح . ولكن كيف تشجع تلك الأخبار المبتلى على الصبر ؟ يقول « وقد علم الانسان أن سفور الحالة عن ضدها حتم لا بد عنه » وهذه العبارة الأخيرة برهان حقيقي على كل ما أسلفنا من تحليل ، فالكاتب يؤمن بحتمية التغيير وبانبثاق الفرج عن الضيق وبانبثاق المعطي عن الآخذ والآخذ عن المعطي وهذه حركة تؤدي الى تغيير يبرز في شكل المكافأة بدلالتها الجديدة . فوق ذلك فالعبارة قانون يهدم المنطق الصوري في عصر مبكر ويقيم مكانه منطقا جدليا يجعل من سفور الحالة عن ضدها من الحتم الذي لا بد عنه . ويصبح هكذا الصبر صراعا مع اليأس لتحقيق الأمل بالوعي بصدور حتمي لهذا الأمل المحقق من حالة اليأس .

أدبية الكتاب ـ ٤ ـ

والآن ما علاقة هذا الكتاب بالأدب بعد أن قيمته الفكرية وما يطرحه من مناهج للسلو الاجتماعي ؟ الكتاب كتاب أدب في المقام الأول وأدبيته تنبع من بنيته السطحية ذات التشكيل الجمالي المحصن التي تنبثق دلالتها بتشكيل بنيه الكتاب العميقة داخل فراغ الروح من البناء العقلي للمتلقي .

الكتاب من مقدمة وثلاثة فصول ولكل فصل من

الفصلين الأول والثاني خاتمة ، وللفصل الثالث خاتمة هي خاتمة الكتاب كله .

والمقدمة هيكل عظمي للكتاب فهي افتتاح لرسالة تكمل بخاتمة الفصل الثالث والكتاب جميعاً فهي الرأس ينبيء بشكل الجسم ووجوده في آن . وهي مقدمة تخلو من أي صورة أو رمز . وهي تناقش في بطء شديد قضية المرسل اليه في عرض تحليلي لما يطرح حلاً لمعضلة . وينبع البطء الشديد من تكثيف العبارة تكثيفاً يشبه تكثيف الغاز في انبوبته ، إذ تتسع الدلالة ، لكن على القاريء أن يستقبلها بالتدريج على مهل بقراءة تلك المقدمة القصيرة عدة مرات حتى يتأتى له فهم دلالتها . ويعتمد هذا البناء على المزاوجة بين الجمل والمساواة حتى توهم بالترادف . ويأتي التزاوج منبثقاً من جملة أساسية .

الجملة الأساسية

أن أشد على الممتحن من محنته ،

جملتا التزاوج

عدوله في سعيه عن مصلحته
وتنكبه الصواب في بغيته

الجملة الأساسية

ولكل وجهة من الجدوى مأتى ،

جملتا التزاوج

يستنزل به عوائدها
ويقرب معه ما استصعب منها

وقد اخترنا هذين المثالين من أول فقرة في المقدمة ، ونرى أن كل جملتين متزاوجتين ينبثقان عن جملة أساسية في بداية التركيب اللغوي . فنحن أمام تركيب ثلاثي لغوي يفسر ما ورد في مطلع المقدمة من تحية الرسالة : « سدد الله خطاك ، وأحسن أمرك ، وكفاك مهمك » . انها تحية موجزة ثلاثية التشكيل اللغوي . من ثم فهذا التركيب الثلاثي يقدم هيكل الكتاب الثلاثي الفصول في شكل ايقاع واع .

وبعد ، تهدف المقدمة إلى تشويق الكاتب لما سيليها من أخبار ، بطرح موضوع تلك الأفكار مركزاً لحفز القاريء على البحث عن تفصيلات ما ركزته المقدمة فيما سيلي . فهي ذات وظيفة بنائية تحفر في فراغ الروح من العقل اناء ضاماً في شكل هيكل شامل عضوي للكتاب ، فينصب الكتاب اليه تدريجياً وفي بطء دون تشتت . إن هذه المقدمة أشبه بالماء يتسلل بين ذرات دقيق الكتاب فيعجنه ويصنع منه رغيفاً واحداً يتضح داخل العقل بنهاية الكتاب .

وذلك الهيكل يتشكل مما سمعه الكاتب ممن تقدمه وشاهده في عصره كما ينص في آخر المقدمة الشديدة القصر . فعناصر تركيب ذلك الهيكل من معطيات ما سلف من تاريخ أو من الملاحظة للواقع ، فهو هيكل مشتق بالضرورة من الواقع في مزج بين تراث ما يطفو على سطح الحاضر فيسمه المؤلف وبين معطيات الواقع الحاضرة في متناول ملاحظة الكاتب . وبهذا توقف المقدمة القاريء بعيداً عن انتظار قصص المعجزات والكرامات أو عن خدع أقلام خيالات الكتاب وهذه خصيصة هامة لأدب ذلك الكتاب ، وكتب كثيرة غيره في ذلك العصر . إن عناصر الحياة الجارية في الشارع ينتقي منها ما يصلح مادة لهذا النوع الأدبي أو ذاك ، ثم تصاغ تلك العناصر جمالياً في شكل خبر صحفي ، تتم صياغته لا ليفهم القاريء ما فيه بل ليسقط مغزاه على واقع حياته ، وليقتنع بأمر بعيد كل البعد عن الـ... وسنعود في الحال لتوضيح ذلك .

⊙⊙⊙

وبعد المقدمة يأتي الفصل الأول ليحمر « المكافأة على الحسن » ويكتسب العنوان أهمية كبرى .

يشير إلى عنوان الكتاب كله « المكافأة » فهذا العنوان الأساسي يسبق المقدمة ، كأنه إجمال لكل الكتاب ، وتصنيف حاسم لموضوعه الموحد ، وجهاز عصبي سينتشر في كل الصفحات ، ثم تفصل المقدمة إجمال المكافأة إيقاعياً بالتركيب اللغوي الثلاثي ثم يأتي الفصل الأول بعنوانه المذكور ليشكل بنية صغرى تتضام في البنية الكبرى : بنية المكافأة على الحسن « التي تتضام في بنية كبرى هي « المكافأة » .

ويتلو العنوان إثنان وثلاثون خبراً وكل خبر « بانية » في تلك البنية الصغرى ، وبتشابك الأخبار تنمو وتتهيكل البنية العميقة ، وفي انفصالها تبرز البنية السطحية .

وهذا يدفعنا مبدئياً لدراسة الخبر على حدة ، ذلك الخبر الذي سبق ووصفناه بأنه في شكل خبر صحفي تتم صياغته لا ليفهم القاريء ما فيه بل ليسقط مغزاه على واقع حياته ، وليقتنع بأمر بعيد كل البعد عن الخبر .

ولكن ما الجنس الأدبي لهذا الخبر ؟ لا شك أنه نوع من أنواع القصص يعتمد في اداء وظيفته على المثل الكنائي « الأليجوري Allegory » فيمكن لنا أن نطلق عليه - إذا كان ولا بد من الأسماء للأشياء - الخبر التمثيلي . فهو في ظاهره يحكي حدثاً نامياً يبدأ بموقف متأزم يكون نقطة انطلاق الحدث إلى الانفراج . والانفراج يُلَمِّح لموقف متأزم جديد يؤدي وقوع الانفراج في الموقف الأول لحدوث الانفراج في الموقف الثاني والحدث يقدم شخصية راغب يتجه في أزمته إلى مرغوب اليه ، ثم يصير الراغب مرغوباً اليه والمرغوب راغباً أي آخذ ومعط في موقف أول يتبادلان المراكز في موقف ثان وأخير .

فالراغب (أ)		المرغوب إليه (ب)
في	يتجه إلى	في
أزمة (١)		انفراج (١)

ثم يصير :

(ب) راغباً		(أ) مرغوباً إليه
في	يتجه الى	في
أزمة (٢)		انفراج (٢)

وبتكرر نفس بنية الخبر على طول الفصل تستمر السلسلة السابقة مفتوحة الى ما لا نهاية لأن الفصل لا ينتهي قط بفضل خاتمته التي تتشكل من بضعة سطور ، ترى في الحكايات السابقة دافعاً لاستمرار نفس الحدث بين الراغب والمرغوب اليه ، كما أنها تمهد للمثابرة في ذلك الاستمرار بدعوة (أ) ، (ب) لمشاهدة المكافأة على القبيح ففيها دافع المثابرة .

ooo

وقبل أن ننتقل الى نقطة جديدة نرى صدق ما سبق في مثال من أخبار هذا الفصل وليكن الخبر الأول :

« حدثني أبو محمد يحيى بن الفضل عن عبد العزيز بن خالد الأموي عن أبيه خالد ، قال :

١ - أخبرني محارب بن سلمه ، كاتب خالد القرى : أن ديوانبان (صاحب ديوان) خالد أخرج من ديوانه وثيقة على بعض المتضمنين (ملتزمي الخراج) ، فدفعها اليه ببر تعجله منه ، فدعا به خالد ، وأمر بقطع يده بين يديه . فقال له : استبقني أصلح الله الأمير (على يدي) . فقال : وما يكون من مثلك ؟ فقال له : ان لم يقدر الزمان رفعتي الى منزلتك ، فلا تأمنه على حطك الى منزلتي فيكون مني ما تحمده . فقال خالد : أطلقوه ففيه عظيم .

٢ - فلم يمض حول حتى ورد العراق يوسف بن عمر متولياً لعمله ، فحبسه في حجرة من ديوانه ، ووكل بباب الحجرة جماعة ، فتدسس الديوانبان حتى دخل في جملتهم ، وتلطف للجماعة حتى رأسها

بخبرة وحسن المداخلة . وتجرّم خالد طعام يوسف بن عمر ـ خوفاً من أن يكون مسموماً ـ فطوى .

وتأمل من ذلك الديوانبان فجعل في منديل نظيف ما يكف جوعته من طعام قد تأنق فيه ، ودخل اليه كالمتجسس عن حاله ، فقال له : أنا الديوانبان الذي عفوت عنه ، وهذا طعام تأمن فيه ما تخافه من غرّة .

فأقام أياماً يأتيه من طرائف الأطعمة والفواكه ما ينسى به وحشته ، ويكف فاقته ، ثم دخل اليه فقال : ليس هذا الذي أفعله مقدار ما يقتضيه إحسانك الى ، وقد استأجرت الدار التي في هذه الحجرة ، واحضرت قوماً أثق بهم من حذاق النقابين ، حتى نقبت سرباً الى موضعك ، ولم يبق الا أن تركض بعض بلاط هذا المجلس ركضة ، فتفضي الى السرب . وقد أعددت في الدار نجيبين أحدهما لك والآخر لي .

فلما صلى الديوانبان العصر أغلق الباب ، ومضى الى الموضع المكترى ، وركض خالد الموضع وخرج من السرب ، وركبا نجيبيهما وحثا المسير . فما فطن بخالد الا في غد ذلك اليوم فطلبته الخيل النجب ففاتتها ، ولم يزل يوضع في البلاد حتى لحق مسلمة بن عبد الملك ، فشفع له هشام ، ورده الى عمله » .

❁❁❁

وبتطبيق ما سبق عن فكرة الحدث التامي بين أزمتين وانفراجين نجد أن :

الديوانبان (راغب)		الأمير خالد (مرغوب إليه)
في	يتجه الى	في
أزمة (١)		انفراج (١)

ثم صـــار :

الأمير خالد (راغباً)		الديوانبان (مرغوباً إليه)
في	يتجه الى	في
أزمة (٢)		انفراج (٢)

وهذا النسق في البنية السطحية يطرد في كل الأخبار حتى لو صعب استنباطه في عدد قليل من جملة الأخبار .

ويصبح الحدث : أزمة ـ انفراج ـ أزمة ـ انفراج .

والحدث عبارة عن قصتين الأولى (أزمة (١) ـ انفراج (١) تتحرك من التوتر الى الهدوء . ومثلها تماماً القصة الثانية : (أزمة (٢) ـ انفراج (٢) فالقصتان تسيران في خط مستقيم منقطع بين الانفراج (١) والأزمة (٢) وتقوم العلاقة العضوية بين القصتين عن طريق شخصية الراغب (أ) الذي يتكرر في القصتين مع تغير وضعه في القصة الثانية من راغب الى مرغوب اليه . أما المرغوب اليه في القصة الأولى فقد يتكرر في الثانية أو قد يحل محله أحد أو آحاد من نسله أو أي انسان راغب يقع في نفس مأزق الراغب في القصة الأولى والذي يصير مرغوباً اليه في القصة الثانية . وسبب عدم ثبات المرغوب اليه وتبدله من القصة الأولى الى القصة الثانية هو أن الراغب في الأولى آخذ ، والأخذ حق يفرض واجباً هو حسن المكافأة كقيمة ذات بعد اجتماعي يلتزم بها الراغب (أ) تجاه أي راغب (ب) يقف موقف (أ) في القصة الأولى .

فهو نسق ثلاثي تحركه شخصية أساسية هي الراغب (أ) الذي ينبغي أن يصير مرغوباً اليه (أ) أيضاً في القصتين . والحدث يدور في مكان وزمان والانقطاع بين القصتين هو انقطاع زماني :

فالقصة الثانية في خبر الديوانبان وخالد تبدأ هكذا « فلم يمض حول حتى . . . . » فالقصة إذن تحدث بعد الأولى بعام . وقيمة الانقطاع الزماني هو خلق فراغ لحركة الانفراج الأولى نحو التكاثر حتى يصير في الانفراج الثاني حسن مكافأة ، والحركة المذكورة في ذلك الفراغ حركة غير مرئية لأن الراغب (أ) كلما مر عليه الزمان يفترض فيه النسيان وزوال حرج ما تلقى من إحسان ، فلم يعد ملزماً نظرياً بحسن المكافأة ، ولكنه لا ينسى

واجبه ، ويختار القيام به بمحض إرادته . وهذا يفجر في أذهاننا البعد الاجتماعي لحسن المكافأة بانتشار الانفراج (١) في الزمان ثم بعدم ارتباط الانفراج (٢) بشخص المرغوب اليه (ب) صاحب الانفراج (١) ، فقط يقع انفراج (٢) متسلطاً على أي راغب ، أي على أي فرد في المجتمع في اطار مسئولية الشخص الراغب (أ) في الأزمة رقم (١) حينما يصير مرغوباً اليه لمواجهة مسئولية انفراج (٢) للأزمة (٢) . ومعنى ذلك أن الفرد (أ) في المجتمع يتلقى انفراج (١) وهو أشبه ما يكون بما يسمى حديثاً « الحق » ونيل الحق يفرض عليه تحقيق الانفراج (٢) وهو ما يمكن أن يطلق عليه حديثاً « الواجب » . ولما كان نيل الحق واداء الواجب يدوران حول الشخص (أ) في ارتباطه بشخص ما (ب) لا تتحدد هويته بدقة بل هو شخص يمتد في كل الأشخاص خلال فراغ المجتمع ببعده الزماني والمكاني ، وبكلمة أخرى : هو المجتمع . من ثم يصبح حقيقة النسق هكذا :

فرد (أ)		المجتمع
في	يتجه إلى	في
أزمة (١)		انفراج (١)
	ثم يصير	
المجتمع		الفرد (أ)
في	يتجه إلى	في
أزمة (٢)		انفراج (٢)

وما سبق يجعل الراغب (أ) وصلة عضوية بين قصتي الخبر . ويثبت ذلك ضرورة وجوده في القصتين لأداء الدور الرئيسي في الحدث ، فهو مناط اهتمام الكاتب منذ المقدمة التي تستنكر الأسلوب التقليدي في الاحتفال بالمرغوب إليه دون الراغب . ويبدو دور الراغب (أ) في أنه مسئول عن الانفراج (٢) للأزمة (٢) باعتبار ذلك حسن مكافأة على نيله الانفراج (١) لأزمته (١) .

فالأزمة (٢) لا علاقة لها بالقصة الأولى حتى لو تكرر نفس المرغوب اليه (ب) فيها ، على صورة راغب في القصة الثانية . ومعنى ما سبق أن نفس النسق السابق للبنية السطحية يصير النسق التالي في البنية العميقة :

أ = ب

= انفراج (١) + أزمة (٢)

= أزمة (١) + انفراج (٢)

= راغب ÷ مرغوب إليه

= حركة مجتمع في تكافل

بين حق الفرد على الفرد

وواجب الفرد نحو الفرد

في نمو دائري عبر الزمان والمكان .

ويمفهوم الحق والواجب يصبح في ضوء فكر ابن الداية : الحق يفرض واجباً أكثر اتساعاً من الحق فيصبح الحق الصادر من المجتمع استثماراً يعود ربحه داخل ما يفرض على الفرد من واجب ، وهذا التزايد يجعل حق الفرد لدى المجتمع ينمو فيزداد الحق وبالتالي الواجب في سلسلة يمكن أن نطلق عليها التقدم .

ولكن ما هو مفهوم الأزمة ؟ إنها الضرورة مقابل الحرية (الانفراج (١) ، (٢) ، أي أن الحرية حقوق وواجبات في حالة تزايد ونمو ، وبها يقهر الانسان الضرورة .

❁❁❁

وفي الحكايات جميعاً في الباب الأول يطرد انتشار الانفراج كما قلنا في الزمان ، وانتشار الانفراج في نسق جمالي يعمق رأسياً بطول ٣٢ خبراً ، مكافأة على الحسن .

فالفصل كله بنية ذات هيكل سطحي يحكم تشكيل ما بداخله من عناصر . أي أنه بنية سطحية ذات بنية تحتها ، وهذه البنية بسطحها الممتد في العمق بانيه في بنية أكبر هي بنية الكتاب .

وبنية « المكافأة على الحسن » الصغرى لا يمكن تصور الحسن فيها بدون تصور مقابله « القبيح » ، وبالتالي فعلاقة التعارض في « المكافأة على الحسن » ستتوجه تلقائياً نحو « المكافأة على القبيح » ولهذا ينتهي الفصل الأول من الكتاب : « ولأن المرغوب اليه اذا كان يحتاج الى مطالعة حسن المكافأة للاحسان فيثابر عليه ، وسوء المكافأة على الاساءة فيتأخر عنه ، كان الراغب محتاجاً أن يكون في خلده من أخبار من أساء الصنيع فساءت مكافأته ، ما يوازي ما اثبتناه من حسن المكافأة للاحسان » .

ونسق البنية السطحية يسير في خط يوازي خط النسق السابق في اتجاه مضاد .

مرغوب إليه (آ)		راغب (ب)
في	ينصرف عن	في ازمة
انفراج	ثم يصير	
(ب) مرغوباً اليه		(آ) راغباً
في	ينصرف عن	في
انفراج (٢)		أزمة (٢)

ونسق تلك البنية الصغرى العميق :
نفس المعادلة السابقة من هذا المثال .
ونضرب نموذجاً لذلك بالحكاية رقم (٣٤) :
« وسمعت أبا جعفر بن هرثمة يقول :

كان محمد بن عبد الملك الزيات يسعى على المتوكل - في أيام الواثق - ويحرضه عليه ، فتغيرت عليه نيته ، حتى أدى ذلك الى حبسه عند محمد بن عبد الملك .

فسمعت المتوكل يقول في اليوم الذي تقدم في ادخاله الى التنور الحديد (يريد ادخال ابن الزيات على يد المتوكل بعد أن صار خليفة) : لم يمن أحد بمثل ما منيت به من ابن الزيات ! ضيق على محبسي ، ومدني مما اقتضتنيه عادتي . وكنت قد تزييت وفرة (شعر طويل) فلم يطلق لي تنظيفها ، فكثرت الدواب فيها . وتأدى ذلك الى والدتي ، فكتبت الى الواثق رقعة . فقال لمحمد ابن عبد الملك : اطلق لجعفر طمّ شعره ، وتنظيف ثوبه وتطييبه . فانصرف كالمغيظ ، وضرب الموكل بي ، وقال : تركت حبس جعفر شارعاً من الشوارع حتى سهل شكوى أمه ! أمر باخراجي فخرجت فوجدت إمارات الغضب في وجهه . ووقفت ساعة لا يرفع فيها وجهه الي . ثم قال : نطع . فأوهمني أن الواثق أمر بضرب عنقي ، فبسط بين يديه . ثم أومأ بإدخالي فيه ، ولم أشك في القتل ، ثم قال الحجام . فقلت : أظنه يقلع أضراسي قبل قتلي ، وأنا في سائر هذا قائم ، فلما وافى الحجام . قال : احلق شعره . فأجلسني يحلق شعري . فآليت على نفسي الا أستبقيه لحظة ان ظفرت بالخلافة ، فمات محمد بن عبد الملك بالتنور في اليوم الثالث » .

يصبح النسق للبنية السطحية في هذا الخبر هكذا :

محمد بن عبد الملك

الزيات		المتوكل
في	ينصرف عن	في
انفراج (١)		أزمة (١)
	ثم	

محمد بن عبد الملك

المتوكل		الزيات
في	ينصرف	في
انفراج (٢)		أزمة (٢)

○○○

ومعنى ما سبق كله أن محمد بن عبد الملك الزيات في انفراجه (١) أي في وفور قوته كان واجب العدل أو جعل ما هو عليه من انفراج يمتد الى غيره ، لكن استخدام انفراجه في خلق أزمة للمتوكل وأزمة قاسية

فيها إساءة تنفيذ الواجب وتدور الدائرة ، وتنفرج أزمة المتوكل ، وفي انفراجه (٢) هذا يكافيء ابن الزيات على ما سببه له من أزمة بأن ينكبه نكبة كانت الأزمة (٢) القاضية على ابن الزيات . من ثم فالفعل المسيء من الفرد (أ) ضد الفرد (ب) جعل الفرد (ب) يكافيء (أ) مكافأة بالغة الاساءة فيها زيادة على ما سبق من (أ) .

اذن اساءة أداء الواجب قبح يجعل من الحق للمسيء إساءة القبح فحق المسيء أسوأ من اساءة واجبه وتلك هي المكافأة على القبيح .

وكما ينتظم النسق في هذا الفصل انتظاماً يشكل منه بنية صغرى تسير في عكس اتجاه البنية الصغرى للفصل السابق عليه يتنوع الاطار السياقي الذي ينـدفق عنه النسق تنوعاً لا يغير من النسق ، وانما يشكل ايقاعاً يخلو من الرتابة ويتسم بالاشارة ، فلا تسير الأخبار في خطها المستقيم بتواليها وراء بعضها شاغلة فـراغاً في المكـان والزمان مسيراً رتيباً مثل سيرهـا الرأسي . لأن السـير الـرأسي للنسق يعمـد الى تـأكيـد قضيـة الكـاتب ، وحصـرها حصـراً يضيق وعاؤه وتتسـع دلالته بعكس السير الافقي المصاحب فهو يهدف الى التشويق والامتاع والاستدراج الى مرحلة جديدة في تعمق السير الرأسي . ونقصد بالسير الرأسي تـراكم نفس النسق خبراً فـوق خبر . فالرتابة في السير الرأسي ونقصد بالسير الرأسي تراكم نفس النسق خبرا فوق خبر . فالرتابة في السـير الرأسي تمثل عنصراً ثابتاً في القضية بينما التنوع الأفقي يمثل المتغير منها .

وإذا عـدنا لخبـر ابن الزيـات . فـاننـا نجـد خمس وحدات تركيبية للسياق هي :

١ ـ محمد بن الزيات يسعى ضد المتوكل حتى حبسه .

٢ ـ المتوكل يدخل ابن الزيات في التنور .

٣ ـ المتوكل يعاني في سجن ابن الزيات .

٤ ـ المتوكل ينوي قتل ابن الزيات ان ظفر بالخلافة .

٥ ـ ابن الزيات يموت في اليوم الثالث لدخوله التنور .

ومن المفترض أن يكون ترتيب الوحدات السياقية السابقة في الواقع الممكن فيزيقيا هكذا :

الوحدة (١) سياقياً ـــ (١) فيزيقياً
الوحدة (٢) سياقياً ـــ (٣) فيزيقياً
الوحدة (٣) سياقياً ـــ (٤) فيزيقياً
الوحدة (٤) سياقياً ـــ (٢) فيزيقياً
الوحدة (٥) سياقياً ـــ (٥) فيزيقياً

أي أن سياق وحدات الحدث في الخبر لا تسير في الزمان سيرها في الواقع لو حدثت . وهذا السياق يتنوع طوال الفصل مع كل خبر بتنوع ترتيب الوحدات وأيضاً بما يترتب على هذا التنـوع من تعارض مـع الترتيب الواقعي الممكن . وذلك التعارض الأخير تـوتر مـولد لمصدر جديد عميق من مصادر التنوع .

واذا عدنا للخبر رقم (٣٣) وهو أول خبر في الفصل الثاني هذا الذي ندرسه نلاحظ تركب الخبر وتنوعه . والخبـر مشهـور حـول حـرب بن ملك فـارس وملك الهياطلة . ويتعمق النسق في هذا الخبر هكذا :

وحدة (١) :

ملك فارس في انفراج (١)	ينصرف عن	ملك الهياطلة في أزمة (١)

ثم

وحدة (٢) :

ملك فارس في أزمة (٢)	يتوجه الى	ملك الهياطلة في انفراج (٢)

ثم

وحدة (٣) :

ملك فارس في انفراج (٣)	ينصرف عن	ملك الهياطلة في أزمة (٣)

ثم

وحدة (٤) :

ملك الهياطلة في انفراج (٤)	ينصرف عن	ملك فارس في أزمة (٤)

وهذا النسق المركب فى حقيقته يتشكل من الوحدة ١ ، ٤ نسقيا واما ٢ ، ٣ نسقيا فهى وحدات قصصية تمثل خطوط رابطة بين الوحدتين ومنمية للحدث . ومن الملاحظ ان الوحدة (٣) تشكل نسق أخبار الفصل الأول من الكتاب . وأكثر من ذلك فان الوحدة (١) تحتها وحدات أصغر تنضوى تحت نسق أخبار الفصل الأول أيضا .

فالخبر ٣٣ يبدأ هكذا :

حدثنى احمد بن يوسف بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله عن العباس ، عن ابيه عن جده مولى عبد الله بن المقفع ، ان عبد الله حدثه :

« كان فيما ترجمه من سير الفرس : أن فيروزا لما تقلد مملكة فارس حدثته نفسه باجتياز بلد الهياطلة . وكان به للهياطلة ملك صحيح الرأى حسن الحوار ، فجمع ذوى الرأى فى بلده وسألهم عما يرون فعرضوا عليه أموالهم والخروج معه ، فجزاهم خيرا وانصرفوا ، وخلا به وزيره ـ وكان على السن ـ فقال له :

ـ أيها الملك ان يسير الحيلة ربما بلغ أوفى منازل المكافحة ، والذى عندى من الرأى أن تظهر السخط على ، فتقطع يدى ورجلى ، وتنفينى الى أقاصى عملك وتكتب الى « عاملك » هناك فى حبسى ، وتظهر أنك تبينت منى ميلا الى فيروز .

فقال :

ـ أنا مذ تكامل تمييزى أحسب ما لى وعلىّ ، فاذا وهبت لى نعمة علمت أن على فيها محنة ، وأن الرغائب بالنوائب ، وقد عشت فى سلطانك ـ أيها الملك ـ فى هذه السن العالية ، عزيز الجانب خصيب الأفنية ، وشملى فى نهاية من رفاغة العيش . وليس من الجميل أن أمسك عن قضاء حق النعمة على لسلطانى وشملى وأهلى وولدى وصيانتهم ، مما عزاهم بنفسى . وأعلم أنى لو خدمت السلامة لنفسى ، لمات ذكرى بموتى ، ولم أبق شرفا لأهلى . ولعل أجلى قريب فأفوز بحسن الذكر فيما أتيته ، وقضيت به حق سوالف الانعام على ، والاحسان الى . وانما اعتمدت هذا الأمر الفظيع لأعدل بفكر فيروز عن الحيلة واضطره الى السكون » وتستمر القصة ويخدع الوزير الملك الفارسى فيروز فيقع هذا الأخير فى الأسر ، فيفرج عنه ملك الهياطلة بعهد عدم الاعتداء ، فيعود للاعتداء فيقتل .

وبتأمل الجزء الذى أوردناه من ذلك الخبر الطويل نسبيا بالمقارنة بالأخبار الأخرى فى الكتاب يمكن اكتشاف اكثر من وحده صغرى داخل الوحدة (١) نسقها كالآتى فى مثال الوزير والملك :

الوزير (شابا) فى أزمة	يتجه الى	المجتمع فى انفراج

ثم

المجتمع فى أزمة	يتجه الى	الوزير (مسنا) فى انفراج

واذا تأملنا ترتيب الأحداث زمانيا وجدنا أن الحدث

الكبير الذى يتشكل أساسا من الوحدة (١) والوحدة (٤) يسير فى خط مستقيم بينما الوحدة السابقة التى وردت تحت الوحدة (١) يظهر الوزير مسنا ، لكنه فى حواره مع الملك نجده يعود لذكر ماضيه وما سلف من نعمة أنعمها المجتمع عليه ، فيسير الزمان فى خط يبدأ من الحاضر ويتجه للماضى ليعود الى الحاضر من جديد .

وحركة الزمان فى النص تؤدى وظيفة جمالية نعود لابرازها فى قصة المتوكل مع ابن الزيات لأننا أوردنا النص كاملا .

يبدأ النص بادخال ابن الزيات فى التنور ، وآخر فقرة وردت فيه تنص على موته فى اليوم الثالث . أننا طوال النص نترك ابن الزيات فى التنور أو بكلمات أخرى نتركه ثلاثة أيام يتعذب العذاب المفضى الى الموت . ومع حركة النص البطيئة يظهر فى الفراغ حول التنور المتوكل يتعذب فى سجن ابن الزيات ينتظر الموت ويتوقع تعذيبه وقلع اضراسه قبل قطع رأسه وفى اللحظة التى يفلت المتوكل من الموت يموت ابن الزيات . ان معاناة المتوكل تمتزج بمعاناة ابن الزيات وقوة المتوكل تتصارع مع قوة ابن الزيات .

وبالتالى فاتجاه خطوط حركة الزمان وتعاكسها أو تقاطعها أو سيرها فى خطها المستقيم أحد مصادر التنوع بجانب تعارض هذا السير ووحداته أحيانا مع سيرها الممكن فيزيقيا كما سبق القول .

وكذلك تعقد النسق كما فى الخبر (٣٣) أو بساطته فى الخبر ٣٤ يعد مصدرا رابعا من مصادر التنوع فوق مدر الأخير الخاص بتجدد الحدث مع كل خبر اذ لـ بأشخاص جدد وعلاقات متباينة تربطهم ، بل ر سياسية وتاريخية ونوعيات فعل شديدة التباعد .

ويلاحظ هنا عدة أمور :

١) أن نفس ظاهرة التنوع وعلاقتها بالايقاع توجد فى كل أخبار الكتاب بفصوله الثلاثة فهى مصدر ايقاع موحد فى العمل كله .

٢) أن وحدة النسق فى هذا الفصل هى البنية العميقة التى تصل بين الأخبار مثلما يعد توالى الأخبار وانفصالها هو البنية السطحية لنفس الفصل .

٣) أن سير النسق السطحى والعميق فى كل خبر من أخبار الفصل الثانى فى خط معاكس للفصل الأول هو رابطة بنيوية جديدة تجعل هذا الخط ينطبق فى تعارض على الخط الأول وبهذا تتراكم بنية الكتاب وتتلاحم .

٤) أن حوار الوزير مع الملك فى الخبر (٣٣) كما أوردنا، يرسم نسقا يجعل المرغوب اليه (ب) ممثلا للمجتمع كما أوردنا فيما قبل حيث أن سلوك الوزير حسن مكافأة للسلطان ولشمل الوزير وأهله وولده ومن أجل تخليد ذكره أى حسن مكافأة لجماعة تنتشر وجودا فى زمان خالد يدوى فيه ذكر الوزير ، وذلك هو المجتمع مما يدعم كل ما ذهبنا اليه فى هذا المقال عن فكرة الكتاب .

٥) أن هذا الفصل الثانى ينتهى بفقرة تجعله والفصل الأول شيئا واحدا لتربطهما بالفصل الثالث والأخير وهاكم تلك الفقرة :

« واذ وفينا ما وعدناك به ، من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ما رجونا أن يكون ذلك عونا للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب المعارفة فى الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر وابعادها عن سورة الانتقام فى القبيح ، وقد قالوا : الخير بالخير والبادى أخير والشر بالشر والبادى أظلم . . . رأيت أن اصل ذلك ـ حفظك الله ـ بطرف من أخبار من ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى لأن النفس اذا لم تمن عند الشدائد بما يجدد قواها ، تولى عليها اليأس فأهلكها .

وقد علم الانسان أن سفور الحالة عن ضدها حتم

لابد منه ، كما علم أن انجلاء الليل يسفر عن النهار . ولكن خور الطبيعة أشد ما يلازم النفس عند نزول الكوارث ، فاذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة وازدادت المحنة . والتفكر فى أخبار هذا الباب مما يشجع النفس ، ويبعثها على ملازمة الصبر ، وحسن الأدب مع الرب عز وجل ، بحسن الظن فى مواتاة الاحسان عند نهاية الامتحان . والله ولى التوفيق » وتنتهى تلك الخاتمة والتى تتكرر فى نهاية كل فصل بل وفى بداية كل فصل باعتبار المقدمة مدخلا للفصل الأول ، وخاتمة الفصل الأول مدخلا للفصل الثانى ثم هذه النهاية مدخلا للفصل الثالث . وفى الحقيقة الكتاب ينحل كله فى المقدمة ثم لا يلبث أن يتماسك فى الفصل الأول ، لكن كل خبر فيه ينحل فى الخبر الذى يليه ، حتى يصير آخر خبر وقد انحل فيه كل ما سبقه من أخبار وتماسك فيه الفصل لينحل فى خاتمته التى يتدفق منها الفصل الثانى ، وهذا يعنى أن تلك الخاتمة قد انحل فيها الفصلان الاول والثانى وامتزجا ليتدفق منهما الفصل الثالث ثم اليهما .

وينبغى تحليل تلك الخاتمة لما فيها من دقة فى الانتقال ورهافة فلسفية أخف من سقوط الندى متكثفا على كوب ماء بارد :ـ

١ ـ لأول مرة ترد كلمة الخير والشر فى الكتاب . لقد اطمأن الكاتب الى اتضاح فكرته عن الجود كقيمة اجتماعية . وكيف أن الجود فعل أجيد ، فهو حسن ، وأن قطع حركة هذا الجود يتم بفعل أسىء أداؤه ، فهو قبيح . والحسن بالضرورة خير والقبيح بالضرورة شر . ومعنى هذا أن الكاتب يقدم لنا قيمة الجود بما يتفرع عنها من احسان أو اساءة باعتبارها قيمة اجتماعية ذات بعد جمالى يجعل منها بالضرورة سلوكا أخلاقيا يتراوح بين الخير والشر . وهذا البعد الاخلاقى ثمرة نهائية نلتقطها من طبيعة أداء الفعل . وهذا يعنى نظرية فى الأخلاق تجعل من الأخلاق نتاجا لقيم المجتمع حسنها وقبيحها وليست حافزا أو تشكيلا لتلك القيم .

ومادامت الأخلاق من نتائج الجود فالأدب مع الرب حمد على ذلك الجود والثقة فى الله نابعة من حتمية مواتاة الجود (الاحسان) باعتباره خيرا يحض الله عليه ويحمد من أجله .

وهذا مدخل الى الصبر ، ان الكارثة لابد أن تنتج ضدها ولكن خور النفس يحول بين الانسان والوعى بهذا ، ولذا لزم توعيته ، مما يشجع النفس فى مواجهة الهلاك (المرض النفسى) والتزام الصبر . ومادام الصبر فعل سلبى فلابد من أن تحفز عليه بالتدرج فى الأساليب طبقا لتدرج حركة سياق الكتاب :

١ ـ حتمية التغيير الى عكس الحال السىء .

٢ ـ أن الصبر ثقة فى الله وأدب معه .

٣ ـ أن الثقة فى الله توازى الثقة فى مواتاة الاحسان أى فى المكافأة خلال دائرة الفعل الاجتماعى .

وتبدأ أخبار الفصل الثالث حيث تظهر لأول مرة درامية كادت تظهر فى نمط تراجيدى فى الفصل الثانى كما رأينا فى قصة المتوكل مع ابن الزيات أو حتى قصة ملك فارس مع ملك الهياطلة . ولكن الحدث المأساوى فى الفصل الثانى لا يبدو الا على صورة موقف يخلو من الصراع الداخلى النامى بعكس ما نرى فى هذا الفصل الثالث حيث يبدأ الخبر ببطل فى أزمة تقترب من الانفراج بل وتبدو وكأنها انفرجت لكى يقع فى تأزم وتصاعد ، والبطل خلال ذلك يعيش صراعا داخليا يحاول طوال الوقت ضبطه . ولا يدرك البطل أن تحت اطراد التوتر والتأزم يكمن الانفراج . ومن يفاجأ بارتفاع الشمس فى السماء قد لا يعى صراع النور والظلام وتسلل أصابع

النور فى لحم الظلام وعظامه حتى تسحقه وتذهب به . ومع ذلك فكل هذا يحدث حدوثا هينا لا يرقى الى درجة العنف سواء فى اطراد اشتداد الأزمة أو فيما يعانيه من صراع داخلى . ويصبح النسق البنيوى هنا بسبب الحس الدرامى أدق من ايضاحه برسم بيانى مبسط كما فعلنا فى الفصل الأول والثانى ولكننا نحاول مع ذلك الرسم البيانى مع بعض الايضاحات .

راغب (أ)　　　مرغوب اليه (ب)
فى　　　يتوجه الى　　　فى
أزمة (١)　　　انفراج (١)

ولكن انفراج (١) لا يستوعب الأزمة فتستمر ويظهر الموقف هكذا :

مرغوب اليه (ب)　　　راغب (أ)
فى　　　ينصرف عن　　　فى
انفراج (١) أ　　　أزمة (١) أ

وهذا النسق يسير فى خط معاكس للنسق السابق ولكن يتكرر هذا النسق السابق مرة أخرى :

راغب (أ)　　　مرغوب اليه (ب)
فى　　　يتجه الى　　　فى
أزمة (١) ب　　　انفراج (١) ب

وهكذا يتبادل نسق « المكافأة على حسن » المكان والاتجاه مع نسق « المكافأة على القبيح » . فهذا الفصل بالضرورة جامع لما سبقه من الفصل الأول والثانى ، وبالتالى فهو أكثر منهما فنية وتعقيدا فى تركيبه ويصبح ما رسمناه من نسق له بنية سطحية وتحتها البنية العميقة هكذا :

انفراج (١) ← أزمة (١) ← أزمة (١)أ+ب ← انفراج (١)ب

وأزمة (١) أ + ب تعنى تصاعد الأزمة وتراكمها كلما لاح لها انفراج الى أن ينتهى الخبر بالانفراج (١) ب ومع صعوبة استخراج هذا النسق فاننا نقدم هذا الخبر كنموذج لهذا النسق :

« وحدثنى منصور بن اسماعيل الفقيه ، قال :

خرج رجل نعرفه بتجارة ، قصده الى الهند ، فرجع الينا بأنواع من الطيب كثيرة لها قيمة خطيرة ، وهو فى نهاية السرور . فقلنا له : كم ربحت التجارة التى خرجت بها من عندنا ! فقال :

ـ غرقت وسائر من كان معى ، فسلمت بحشاشة نفسى فى جزيرة من جزائر الهند ، فتلقانى قوم فيها ، وجاءوا بى الى ملكهم . فقال لى :

ـ قد فقدت الموهبة الخارجة عنك فما معك من الموهبة الثابته عليك ؟

قلت :

ـ معى الكتاب والحساب

فقال الملك :

ـ ما بقى لك أفضل من الذى ذهب منك . والصواب أن تعلم ابنى الكتاب بالعربية والحساب ، فأرجو أن نعوضك أكثر مما فقدته .

وسلم لى من ابنه أذكى صبى وألطفه . فتعلم فى مدة يسيرة ما يتعلمه غيره فى مدة طويلة فلما رأى أنه قد توجه (أى تعلم) واستحققت منه الاحسان ، صار الى صاحب الملك . فقال معى هدية من الملك اليك ، وأدخل الى بقرة فتية . ثم قال : أدفعها لك الى الراعى ؟ ! فقلت : افعل . وصغر فى عينى امر الملك على عظم شأنه . فما مضى زمن قصير حتى جاء الراعى فقال : ماتت البقرة . واستقبلنى كل خاصة الملك بالتغمغم ، ثم ظهر فى ابنه تزيد (زيادة فى العلم) ، فبعث الى ببقرة فتية أخرى فرددتها الى الراعى . لما مضت مدة يسيرة حتى وافى يبشرلى فقال : قد حملت البقرة . فلما انتهى حملها وضعت . فهنأنى حاشية الملك

بأسرهم . ثم جلس الملك مجلسا عاما ، وأحضر التجارة التى رأيتموها معى ثم قال :

ـ لم يذهب على ما يجب لك فى تعليم ابنى ، ولم أبعث بالبقرة الأولى لفضل البقرة عندى ، ولكن نزلت بك محنة فى البحر أتت على مالك ، فامتحنت بالبقرة الأولى ما أنت عليه منها . وعلمت أنى لو أعطيتك جميع ما ملكت يدى وقد بقى منها شىء لضاع منك ، وهلك لديك ، فلما أخبرت أنها ماتت علمت أنك فيها . ثم امتحنت أمرك بالبقرة الثانية ، فلما اخبرت أنها قد حملت علمت أنها انحسرت عنك ، فسررت لك بذلك . واستظهرت انتظار الولادة . فلما ولدت شخصا كاملا صحيح الأعضاء علمت أنك قد فارقت محنتك . وهذا ما أعددته لك . ثم وصلنى بطيب قومته بعشرين ألف دينار . وحملنى فى البحر فسلمت وزاد بأرض العرب ثمنه عما قومته .

قال منصور : فرأيته قد أيسر بعد الخلة والتلفيق فى المعاش .

❁❁❁

ويلاحظ اذا عدنا الى النسق ورد أخبار هذا الفصل اليه نجد أن المرغوب اليه (ب) ليس من الضرورى أن يكون شخصا واحدا . ولهذا يصبح عماد الوصلة بين عناصر الخبر شخصية الراغب الذى هو فى الحقيقة بطل الخبر وشخصية لأولى ومدار الحدث .

كما يلاحظ هنا بروز دور القدر كأساس للأزمة ومن ثم فعلى الانسان ألا يتحدى القدر وانما عليه أن يكتشف قانونه . وقانونه الأصيل هو زوال المحنة الى ضدها . ومن ثم فالصبر أمر ضرورى حتى ينقضى أوان المحنة . وخلال اكتشاف قانون القدر يتاح لنا أن نكتشف أنفسنا . فالتاجر الذى فقد رأسماله ، وتلك موهبة خارجية كما تفقد تستعاد ، بقى له علمه وهو شىء داخلى فيه . فنحن بالضرورة نملك مصادر القوة فى أنفسنا ، وبفضل العلم عاد اليه ما فقد من مواهب خارجه ، واستعاد ما ضاع من رأس مال . لكن عدم الصبر كان من الممكن أن يقضى عليه . فقد كافأه الملك ببقرة أولى ثم ببقرة ثانية ، فصغر فى عينه الملك على عظمة . ولو استجاب لهذه الصدمة وأظهر ما بطن فى نفسه من خيبة أمل واحتقار للملك لكان الأمر مختلفا ، ولكنه ضبط نفسه واستمر فى أداء مهمة تعليم الابن . فاكتشف فى النهاية أن المحنة اختبار عارض ، وصفة طارئة تزول بالصبر ، أو بمعنى آخر بتوظيف المواهب الثابته وعدم تعجل قدوم المواهب الخارجه .

❁❁❁

كيف يقدم الينا النسق السطحى بما له تحته من نسق عميق ؟ اننا أمام فعل قصصى خالص : الخبر يقدمه راو . وهذا الراوى غير غريب عن عالم الخبر فى معظم الأحوال ، فهو قد شاهده ويعرف شخصياته الرئيسية وقد يكون هو شخصيا طرفا فاعلا فى تحريك حدثه .

والراوى يترك لنا ـ فى معظم الأحوال ـ الشخصية الرئيسية فى الحدث لتحكى لنا قصتها . وهذه الشخصية تبدأ فى السرد الذى توقف عنه سريعا الراوى الأول الذى قدمها الينا ، ولكن ما تسرده تلك الشخصية قليل لأنها تعتمد على الحوار الذى يقدم له بسرد برقى ، ويختم بمثله لتقديم حوارجديد . والحوار هنا أسلوب تحتى يخفى حقيقة رهيفة ، وهى أن الخبر كله سرد ، وبالتالى فان الحوار مسبوق دائما بـ (قال ـ قلت ـ قلنا . . . الخ) .

ومعنى ما سبق أن الراوى يستوعب الشخصية الرئيسية وهذه تستوعب ما حولها من شخصيات ويصبح السرد بناء متداخلا هكذا :

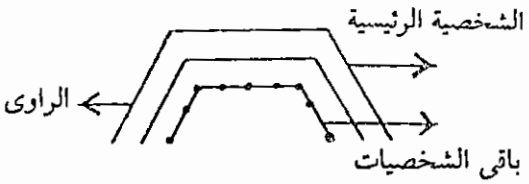

فالشخصيات الثانوية تقدم من خلال الشخصية الرئيسية وتلك تقدم من خلال الراوى . ففى النهاية الراوى هو سيد الموقف ، ومن يقوم بسرده طوال الوقت ، ومع ذلك فهو يحاول عدم استفزازنا بتواجده الظاهر فيتخفى وراء الشخصية الرئيسة . وهذه تظهر وتختفى مواجهة غيرها من الشخصيات . وبهذا يصير السرد حوارا لكنه حوار سردى خالص لايدوم ، فينمو من خلاله الحدث والصراع . ثم لا يلبث أن يسلم نفسه للسرد الذى يسرع بالانتهاء فقال : « . . . . . » ثم ينتهى القول الى السرد وهكذا .

أى أننا فى استخدامنا كلمة الحوار نكون قد جانبنا الصواب ، كما أننا فى استخدامنا كلمة السرد لما يبدو خارجا عن الحوار من أسلوب تقريرى ، أيضا مجانبة للصواب . والصحيح أن النص سرد يتكون من قول ومقول للقول فى إطار البناء المتداخل للراوى والشخصية الرئيسية وباقى الشخصيات .

لكن هنا لنا سؤال هام هل الشخصيات فى الخبر لها ملامح مميزة ؟

فى هذه القصة الأخيرة : الملك والتاجر والراعى كلها شخصيات نمطية تعتمد على صورة الشخصية الموروثة فى ذهن المتلقى . ومع ذلك فنحن أمام ملك هندى يتسم بالحكمة ، ويقدر العلم ولاسيما الحساب والكتابة بالعربية ، لغة الحضارة فى زمن القصة ، وهو فوق ذلك يستخدم طقوسا غريبة لمعرفة مدى إنتهاء محنة التاجر ، حتى لا يعود الى تضييع ما اخذ . والملك ايضا عندما يصدر تصريحا يكون على ملأ من القوم مثلما نلحظ صورة الملك فى مقدمة « كليلة ودمنة » . وهو فوق كل ما سبق أب رشيد يضحى من أجل تعليم ابنه . أما التاجر فكل ما يبدو منه هو أن يستصغر الملك فى عينه إذا جعل مكافأته بقرة . هذا كل ما يبدو عليه من مدخل الى ملامحه النفسية . وفيما أرى أن هذا كاف للغاية لترك القارىء يحس ما كان يفترض أن يسرده كاتب الخبر من احساس التاجر . فلا شك انه يصاب بصدمة قاسية ويأس ولا بد أن يزداد ذلك اليأس وهو فى كل ذلك عاجز عن الفعل سوى أن يستصغر الملك على ما عظم من شأنه . ان القارىء مع امتداد الخبر وتكرار البقرة فى صورة هدية سيسخط ويأس وسينتظر نهاية الموقف المتفاقم . فللخبر اذن أسلوبه فى رسم ملامح الشخصية الرئيسية عن طريق فتح نافذه صغيرة يتسلل منها القارىء . وفى ذلك حكمة : ان صمت التاجر صبر على ما ابتلى به من موقف . ويدعم ذلك عنوان الفصل : « حسن العقبى لمن ابتلى فصبر » . من ثم : فصمته سيحير القارىء الذى يضج بالشكوى واليأس . وهذا بعكس الثانى فنحن فى نموذج المتوكل وابن الزيات يكاد يقترب الخبر من القصة القصيرة المعاصرة . ان المتوكل يحدثنا عما عاناه من كرب ومن خوف . انه يرسم وعيه بلحظة يمر فيها . بموقف محدد . بموقف محدد . وخلال تعاطفنا المتزايد معه يزداد سخطنا على ابن الزيات فيقل اشفاقنا عليه فى التنور تدريجيا حتى يصل تعاطفنا مع المتوكل الى تمامه بموت ابن الزيات فى ثالث يوم (يراجع ما كتبناه فى المقدمة وفكرة ثلاثية النسق) :

انفراج (١) ← أزمة (١) ← انفراج (٢)

يوم لابن الزيات يوم على المتوكل يوم للمتوكل

فالملامح النفسية للشخصية الرئيسية في تلك اللحظة تضيء مع وعيها في نفوسنا . وهذا الكلام بحذافيره ينطبق على الفصل الاول .

ومع بعض التباين في ابراز الملامح النفسية أو اخفائها تشترك الفصول الثلاثة في تداخل الشخصيات كما أوضحنا منذ قليل .

الخبر والتاريخ - ٥ -

هذا أمر يكاد يشترك فيه الخبر هنا مع السيرة الشعبية . فكلاهما مادته التاريخ والخيال معا . فنحن في هذا الكتاب نعيش جو العصر ولكن بشكل لا يعتمد عليه وثائقيا لمن يريد التأريخ بالأسلوب الكلاسيكي للتأريخ . إن الجو الذي نعيشه جو دافيء حي نسمع فيه الصرخات ونرى الناس يحسون بالفرح والحزن وبالخوف والأمان . إن الأخبار محاولة فنية لحقن الواقع باكسير الحياة فيظل هكذا حيا طالما الكتاب فيه بقية من حياة بأيدي الناس . إن الأخبار هنا جميعا تنصب في مجرى لها ينبع من المقدمة ويصب في بحر هادىء لكن بلا شاطيء في خاتمة الفصل الثالث التي هي خاتمة للكتاب . ومياه هذا النهر تختلف عليها الألوان والصور لكنها تظل ثابتة الجوهر حلوة المذاق .

لن نتمادى في هذا الحديث الذي لا يضع النقط فوق الحروف ونعود لخبر المتوكل مع ابن الزيات .

إن التاريخ ينسب لابن الزيات الابتداع والاختراع في التعذيب عن طريق اكتشاف التنور وتطويره بتحميته بالنار ، كما ان التاريخ يعرف دخول المتوكل أميرا في سجن ابن الزيات ، ثم مصرع ابن الزيات على يد المتوكل عندما صار خليفة . لكن التاريخ يقدم لنا هذا الخبر في شكل آلي جامد .

ويأتي الخبر لا يقصد إلى التأريخ في شيء ، وإنما يعتمد على معرفة القاريء بالتاريخ . ولذا يبدأ الخبر دون مقدمات بابن الزيات يدخل التنور على يد المتوكل . ويهمل الخبر شأن ابن الزيات طوال سطوره وبدلا من سماعنا لتأوهات ابن الزيات وآيات عذابه الذي نتوقعه لمن دخل التنور ، نسمع تأوهات المتوكل ومخاوفه والتقائه بشبح الموت على يد ابن الزيات القوي القاسي القلب . ونعيش مع المتوكل لحظة عذاب مكثفة تنتهي دون أن يخرج من السجن . وينتهي حديث المتوكل معنا . ويختفي المتوكل ، ويعلن الراوي موت ابن الزيات في اليوم الثالث لدخوله التنور . لن نفاجأ بموته ولكننا سنجد أنفسنا أمام شهيد سقط ضحية لآلة شريرة تبتلع في النهاية يد الطاغية التي صاغتها بعد عدد كبير من الضحايا . لن نشفق على ابن الزيات ولن نتعاطف مع المتوكل ولكننا سنحس بقسوة العصر وبقسوة كل عصر يشبهه .

فالخبر هنا لم يهدف إلى اعلان واقعة تاريخية بل يشدنا قلب لحظة وقوع الواقعة . إن صوت المتوكل يطغى على صرخات ابن الزيات لأنه الأقوى كما أننا نسمعه خلال تواجد ابن الزيات على رؤوس المسامير المحماة فلا نحس إلا بشماتة المتوكل وجمود قد صاحب شهوة الأخذ بالثأر .

وفوق ذلك لا يريد الكاتب لنا أن نعرف هذا الحدث التاريخي إلا ما يمثل لنا في تشخيص ما يطلق عليه المكافأة على القبيح ». إننا في حفل سادي تسلم فيه جوائز متبادلة ومتتالية من تعذيب الغير . إن (أ) يعذب (ب) ، ثم ينقلب الحال فيعذب (ب) معذبه (أ) أو بمعنى أصح : أن (ب) يتقمص دور (أ) . ولهذا لا نسمع سوى صوت (ب) ولا نرى (أ) إلا من خلال (ب) أو من خلال شخصية الراوي الذي هو شاهد عيان تابع لشخصية (ب) . ونعني بالطبع بالشخص (أ) ابن الزيات ، (ب) المتوكل . إن سلوك ابن الزيات (أ) قبيح ، وسلوك المتوكل (ب) أقبح في مكافأة على القبيح . فالنص في

النهاية يستعين ببناء جمالي للكشف عما هو قبيح وما يترتب عليه من مكافأة أقبح .

والبنية السطحية للخبر في نسقها :

(أ) مرغوب إليه في انفراج (١) ينصرف عن (ب) راغب في أزمة (١)

ثم

(ب) مرغوب إليه في إنفراج (٢) ـ ينصرف عن (أ) راغب في أزمة (٢)

يشتبه الخبر فيها كثيرا بالتاريخ فنحن أمام شخصيات تاريخية وواقعة ثار فيها (ب) من (أ). لكن النسق في البنية العميقة :

كما شاهدناه في المعادلة

يجعل الأشخاص يزولون ويبقى الحدث المتمثل في انفراج (١) ويعني القوة على الفعل خلقت أزمة (١) أي فعلا قبيحا ، وهذا الفعل القبيح كان نتيجته أقبح في مكافأة له . وهذا كله يزيح التاريخ الطافي على السطح لدلالة فلسفية في النهاية هي دلالة اجتماعية وسياسية وتاريخية لكن من خلال التصور والتلميح دون التصريح عبر مشاهدتنا لمنظر عيني يؤدي الى استنتاجات مصاحبة وقف شعوري .

ومع كل ما سبق ، فمثل هذه الأخبار قد تعين المؤرخ البصير على اكتشاف صيغ حياة الشريحة الحاكمة من الطبقة السائدة اجتماعيا في ذلك العصر . ومن خلال هذه الصيغة يمكنه تفسير أحداث التاريخ وسر خط سيرها ، بل وما وصلنا ممتزجا بها من زيف . وأكثر من ذلك فالخبر يعرض رؤية كاتبه وناقله لنا من بعض أحداث عصره . وهي رؤية محددة في إطار عضوية أخبار الكتاب والتأمها . إن الكاتب باختصار يقدم عالما قبيحا يشد قبحه إلى ما هو أقبح . وقبح هذا العالم المتورط في اطراد القبح وجهة نظر للكاتب لن تجد منا الا الاقتناع بها . وهذا عكس تقريرية أخبار التاريخ التي تخاطب منا عقولا ليس لها الا دور الاستيعاب أو التحليل أو التفسير .

بداية تنتهي الى طوق الحمامة ـ ٦ ـ

يحدثنا الدكتور محمد كامل حسين في كتابه « أدب مصر الاسلامية ـ عصر الولاة » عن نمط تأليف الكتب في مصر من حيث منهج التصنيف ، وذلك في معرض حديثه عن كتاب فتوح مصر لابن عبدالحكم : « ولعل أول ما يلفت النظر إلى كتاب ابن عبدالحكم أنه مقسم حسب الموضوعات ، فقد جعله المؤلف سبعة أبواب ، وأدرج تحت كل باب ما قيل في الموضوع الذي خص له ، فاختلف بذلك عن الطبري والمبرد والجاحظ وغيرهم من الأدباء والمؤرخين ، فهؤلاء لم يحاولوا أن يقسموا كتبهم إلى فصول أو أبواب بل خلطوا كتبهم ، وجمعوا فيها كل شاردة وواردة ، زعما منهم أن الأديب عليه أن يأخذ من كل شيء بطرف ، فأودعوا كتبهم كل شيء ، دون أن يحاولوا ترتيب هذه الموضوعات ، وقد غلب هذا النوع من التأليف على علماء العراق ، حتى كان ابن قتبه ؟ فابتدأ بترتيب كتبه . أما في مصر ، فكان المؤلفون يقسمون كتبهم ، ويرتبون موضوعاتها ، حتى أن الفارابي عندما دخل مصر ، ومعه كتابه « المدينة الفاضلة » سأله بعض الناس أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه ، فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة هجرية .

وهذا الاستنتاج اللماح للدكتور محمد كامل حسين في دراسته الشيقة عن أدب مصر يكاد يصل الى حد اليقين الحاسم بعد قراءة كتاب المكافأة » إننا أمام تصنيف فذ لما عرف بـ « الأخبار » في كتب الأدب العربي فنحن أمام سلسلة من الأخبار يجمعها موضوع واحد ينمو سياقه من

الحسن إلى القبيح إلى حسن العقبى . ان فصول الكتاب الثلاثة تنمو بفكرة حتى تصل بها الى غايتها . والفصول بين المقدمة والخاتمة تتماسك ثلاث مرات بينها ذوبانان في خاتمتي الفصلين الأول والثاني وأكثر من ذلك أن ترتيب كل خبر يدخل في سياق جزئي للفصل المنتمي اليه ثم يأتي سياق الفصول دقيق الترتيب والتصاعد ، وأخيرا بين الأخبار المجسمة للفكرة وبين التجريد الفلسفي في المقدمة والخواتيم يتسع مجرى السياق وتتكثف مادته .

إن أسلوب التبويب للكتب العلمية صار هنا في خدمة الأداء الفني . لكن أي أداء فني في جمع مجموعة أخبار ووضعها بعد انتقائها في سياق كالذي ذكرنا ؟! في حقيقة الأمر ان انتقاء الاخبار وترتيبها يتسم بوعي وتيقظ كبيرين فوق أن التجريد الفلسفي في المقدمات والخواتيم عمل فكري في المقام الأول . وكل ذلك يجعلنا أمام جهد فكري تجريدي يخلو من أي فن . هل في هذا سلب لكل ما نسبناه للكتاب من قيم جمالية فيما سبق من سطور هذه الدراسة ؟ كلا بل إنه مغالطة قد يقع فيها القارىء ، بل وكدت أقع فيها لولا أن الكاتب نفسه تداركني مرات ومرات فعصمني من مثل هذا الخطأ .

أول تدخل من الكاتب لصرف وهم اتهامه بالقيام بعمل تجريدي محض كان في المقدمة ، حيث أعلن اعتماده على ما يشاهده بنفسه ، أو فيما سمعه ممن تقدمه . (ولم يكن من تقدمه سوى أبيه أو عمه دون استثناءات الا فيما ندر) . فهو لا ينتقي أخبارا شاعت بين الناس بقدر ما ينتقي من حياته هو في تعامله مع المجتمع . وانتقاء الأخبار من حياة الكاتب يعني ـ على الأقل ـ انفعاله بها وانغماسه فيها ، وصاحب الانفعال والانغماس لا يرى إلا من الداخل أي أن الذات ستمتزج بالموضوع . وهذه أول سمات البعد عن التجريد والدخول في التصوير تشخيصا وتجسيما .

وثاني تدخل من الكاتب لتعريفي بفنية كتابه هي اللغة التي تمت بها الصياغة . إنا لغة موحدة من أول الكتاب حتى آخر ، وتنفي أنه أخذ الأخبار التي يرويها عن غيره كما رواها ذلك الغير . فمن المفترض أن ينقل المتن المروي كما سمعه . ولما كان الأمر غير كذلك ، وأنه بصوغ المتن يصبح السند أيضا موضع شك . وبكلمات أخرى : أن الكاتب يصطنع سندا ومتنا يصوغهما معا في تقنية مختارة من معطيات العصر لأداء مهمة القص . أي أن أخذ الأخبار القصصية هنا شكل الخبر التاريخي أو الأثر المقدس ليس الا خصيصة أسلوبية لعمل قصصي يتقمص شكل الخبر أو الأثر . وهذا ليس غريبا على التراث العربي أو حتى العالمي فالمتطلع الى سيرة عنترة الشعبية يجدها مروية عن الأصمعي . . . عن امريء القيس . كما أن المسرح الاسباني في القرن السابع عشر كما في عدد من أعمال لوبي دي فيجا ـ كان ينص على أن تلك الأخبار قد وردت في وقائع الدولة الرسمية . وهذه الخصيصة الاسلوبية تهدف الى اقناع المتلقي أن ما سيسمعه هو الحق كل الحق وليس من تلفيقات المؤلف . وذلك لأن المهمة التعليمية للأدب بشكل أو بآخر كانت تسيطر على مبدع الأدب ومتلقيه في فترة طويلة سبقت العصر الحديث . وأول مصادر نجاح الأدب في تحقيق هذه المهمة هي أن يتظاهر المبدع بتوثيق عمله والمتلقي يقع في الفخ راغبا مصدقا كل ما يتظاهر به المبدع . إن الأسطورة عالم حقيقي عند من يؤمن بها ، والأدب منذ أن انفصل عن الأسطورة وحاول جاهدا أن يحل محلها في منافسة مع غيره من ضروب الابداع الفني يدعي أنه يخلق العالم الحقيقي والأكثر دقة في عرض الواقع من الواقع نفسه ، وهو إذ يدعي ذلك فهو يؤمن بما يدعي ويسعى لتحقيقه ، ومتلقو الأدب بالضرورة مشاركون في هذا الادعاء معمقون لهذا الايمان وعلى رأس هؤلاء المتلقين يقف النقاد .

مادة الأخبار معاصرة

إذن فالأخبار هنا من صياغة الكاتب ومادتها من واقعه بكل عناصر ذلك الواقع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ولكن هذه المادة لا تعرض علينا كما هي في الواقع بل كما يريد لها الكاتب أن تكون في اطار نظام جديد للعالم يخلقه الأديب . وهذا النظام الجديد أبسط سماته أنه ينزع الواقعة من سياقها ليضعها في سياق جديد . وهي في السياق الجديد لا تحكي شيئا عن عالمها الذي انتزعت منه ولكنها تمثل هنا عالما آخر يدعو الكاتب اليه تحت شعار المكافأة . إن الواقعة هنا حدث يتكلم عن أناس واقعيين دون أن يعنيه أن نعرف هؤلاء الناس أو لا نعرفهم وإنما يقيمهم مثلا منصوبا للدلالة على شيء آخر ينبع من ذات مؤلف الكتاب :

إذن الخبر التمثيلي ـ إذا أخذنا بتسميتي ـ نوع أدبي قصصي ، يشكل وحدة بنائية في سياق أكبر لنوع أدبي آخر هو ما سنسمح لأنفسنا أن نطلق عليه « أدب الفكر » . ولكن ـ وليغفر القارىء لي هذا الاستطراد ـ ما هو أدب الفكر هذا ؟ إن المفكرين في ظل الأجواء التي تسيطر عليها المذاهب والعقائد سيطرة سياسية قمعية لا يجدون فرصة للتعبير المباشر الحر عن أفكارهم . ولذا يلجأون الى التمثيل بالقصة والخبر لما يريدون أن يعبروا عنه من أفكار ، فضلا عن اعتقادهم بأن هذا الأسلوب التمثيلي أنجح لنقل أفكارهم إلى عامة الناس وخاصتهم على السواء ، وهذه قضية تستحق الدراسة المستقلة لأهميتها القصوى في التعرف على مناطق كثيرة في تاريخنا الأدبي ما زالت مظلمة أو تبحث لها عن مكان في خريطة ذلك التاريخ . ومؤقتا أدعو القارىء للرجوع الى كليلة ودمنة ورسائل إخوان الصفا ليتحرى عن أوائل عمليات استكشاف تلك القضية .

نخلص من ذلك أن الكتاب من جنس أدبي هو « أدب الفكر » وأن وحداته من جنس آخر لابد أن يشكل بالضرورة العنصر الأساسي في بنية أي عمل من أعمال أدب الفكر . وهذا الجنس تتعدد الأنواع فيه تعددا يحتاج لتأمل وروية في تصنيفها وتحديدها ولكن مبدئيا فإن كتاب المكافأة يمثل سابقة لا نظير لها من قبل في الأدب العربي ولا نظير لها من بعد إلا في كتاب واحد سيظهر بعد كتاب المكافأة بأكثر من قرن : انه كتاب طوق الحمامة .

وبعد قراءة الكتابين أظن أنني قد اقتنعت بأن النموذج الأساسي الذي صاغ على نمطه ابن حزم هو كتاب المكافأة وليس كتاب الزهرة لابن داود الاصفهاني الظاهري . ومع ذلك فلا ننكر تأثر ابن حزم بكتاب الزهرة تأثرا ثانويا . والسبب الأساسي في هذا الاقتناع هو أن تقنية المكافأة هي نفس التقنية التي استخدمها ابن حزم في كتابه . وليس الأمر كذلك مع كتاب الزهرة ودراسة العلاقة بين الكتابين أمر آخر يخرج عن مجال بحثنا هذا إنما نثير القضية لأهميتها ونؤكد تأثر ابن حزم بابن الداية مما يزيد في أهمية كتاب المكافأة . ونعد القارىء بدراسة متعمقة للعلاقة بين الرجلين في كتابيهما العظيمين .

لغة المكافأة لغة قصصية ـ ٧ ـ

قد أشرنا من قبل الى لغة هذا الكتاب وتوحدها في كل الأخبار مما يبدو من صياغة الكاتب للأخبار جميعا سواء ما شاهده بنفسه أو ما نقله عن غيره . ونحن الآن لن نسرف في تقديم دراسة كاملة للغة الكتاب انما نكتفي بايراد بعض الظواهر اللغوية المتميزة التي تكاد ـ في ظننا ـ أن تكون من أساليب ابن الداية خاصة :

(أ) استعمال صيغ غير مشهورة .

وتتمثل هذه الصيغ في اشتقاقات مشروعة ولكنها غير شائعة . ومنها مثلا فعل « تعالم » بمعنى علمه الناس فهو يقول : « ومما نقله ابن المقفع وتعالمه العرب » ويصف رجلا آخر بقوله « متعالم » بعفاف الطعمة » أي مشهور ومعلوم بين الناس بعفاف الرزق (ونلفت النظر

لاستخدام الطعمة للرزق)، ويطرد استخدام الفعل بمشتقاته . وإذا تأملنا أكثر في الأخبار يتضح كلف الكاتب بهذه الصيغة الصرفية « تفاعل ، تتفاعل » فهو يستخدم « تضاحك . . . تتنادر (أي تتندر) . . . الخ . والوصول إلى هذه النتيجة يعم ، فهو كلف باستخدام عدد من الصيغ الصرفية ومعها استخدامات جديدة أو غير مشهورة لدلالات لها ألفاظ شائعة ونضرب لذلك صيغة : « استفعل ، تفعل » . ومن قوله مما جمع الصيغتين في جملة واحدة « فاستخبرني عن صناعتي فتحسنت عنده بأن قلت : أنا تجر في الغلات » ومنها قوله : « . . يستزير (الفواسد من النساء) أي يطلب زيارتهن ، وقوله : « استطرفه - استنامة - استجيز (الأكل) » ومن الصيغة الأخرى « تأدى إليه (أي نقل اليه)، اتصل إلى (اي نقل اليه)، تحفي (احتفى)، تحيف (حاف)، تدمع (سال دمعه)، ترجل (النهار أي قويت شمسه وشب مثل الصبي يصير رجلا)، ومن غريب استعماله في صيغة (استفعل) قوله : « ثم ملكت ما استغرب مني (يريد ما سال من دمعي مشتقا الفعل من : غرب ، أي دمع) ومنها ايضا : « استتم » بمعنى أتم . ومن غريب استعماله في صيغة (تفعل قوله : « تسللوا للحادث » . بمعنى هربوا في هدوء ودون أن يشعر أحد بسبب ما حدث من أمر جديد غير الموقف . وقوله : « تسرع الروم الى بناء مساكن لهم » في مقام ينبغي استعمال (اسرع) بدلا من (تسرع) بما تحمل لفظة (تسرع) من مفهوم سلوكي حيث تصف السرعة قبل الروية في اتخاذ القرار أو النطق . . الخ .

(ب) الحذف على غير ما اشتهر واستحب في التعبيرات خاصة ما يتصل بالدعاء مثل قوله : « انصرف مصاحبا ، أي مصاحبا بسلامة الله ، وقوله : انصرف مكلوا ، أي مكلوا بعناية الله . وتطرد الظاهرة وتأخذ شكل الاستغناء عن الموصوف بالصفة مثل قوله : « فأخذ بيضاء ، فكتب فيها « وهو يريد : (ورقة بيضاء) .

ونكتفي بهاتين الخصيصتين اللغويتين حتى لا يطول الأمر فيما يجاوز ما أردنا من ذلك . فنحن نهدف هنا فحسب إثبات خصوصية اللغة عنده ودلالتها فيما يتعلق من فرض فرضناه حول إبداعه للأخبار إبداعا يبعده عن مفهوم الخبر المروي . وقبل ان نختم الحديث عن اللغة نستخلص مغزى هاما يضيء ما سبق من حديث حول بنية القص عنده . إن اللغة تعرف أساليب للتكثيف وتبتعد في براعة عن الاستطراد أو عن إضاعة الوقت في الوصول الى الهدف . إنها لغة تعرف أقصر الطرق الى الدلالة القصصية وتفتح الباب أمام القصة القصيرة اليوم إلى لغة متميزة ولا سيما في طريقة الكاتب في الحوار . إن الحوار عنده إيجاز فذ لموقف متسع وهو أسلوب يقطع الطريق أمام طرفي الحوار فلا يمتدان به بلا طائل وبلا قدرة على إنهائه . إن من يتكلم بادئا بالحوار ينهي كل ما يمكن أن يقال ولا يبقى من جواب عليه إلا نعم أو لا أو الصمت ، فهذا فقير يكلم رجلا قويا ثريا سرق منه الجلاد امرأته الوحيدة : « يا سيدي ! لقد أغناك الله عن مساءتي بما بسطه من الرزق عليك ، وظاهره من الاحسان لديك ، وكانت مهجتي (امرأتي) عندك البارحة ، إن رأيت أن تهبها لي !؟ فلك منها عوض وليس لي عنها معدل » . الفقير يكلم الثري القوي بأدب ودبلوماسية مما يجلب حزن القارىء واشفاقه بل وغضبه على الثري القوي . انه يذكره بثرائه مما يغنيه عما بأيدي الفقراء ثم يذكر امرأته بأنها مهجته فهي حياته وكل ما يملك ثم يطلب من الغني أن يهبها له . وإجابة الثري القوي غير المتوقعة صيحة لخدمه بأن يبعدوا عنه الفقير . أقفل باب الحوار قبل ان يفتح وجفت الأقلام وطويت الصحف . ان الحوار يمضي دائما هكذا : قضية تعرض بكل حيثياتها في لباقة وعاطفية ودقة على لسان طرف فلا يبقى مجال للطرف الآخر الا الاجابة برد فعل سيء أو محسن قولا أو فعلا .

وبعد ، فهذا البحث التحليلي يعد وقفة قصيرة أمام كتاب يستحق المزيد من الدراسة لما فيه ، والاحتفاء بما يحتويه . ولعل فيما قدمنا إشارة البدء في اخراج هذا الكتاب المصري من حيز الظل الى حيز النور نشرا وقراءة ودراسة .